

محاضرات مدارس الفلسفة اليونانية السنة الثانية ليسانس

المحاضرة الأولى

عوامل نشأة المدارس الفلسفية اليونانية

مدخل: تقول الدكتورة أميرة حلمي مطر التي لقبت بعاشقة اليونانيات في تصديرها لكتاب الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشكلاتها: " ليست الفلسفة حديثاً حافلاً بالغموض تُثير مشكلات لا علاقة لها بالواقع ولا هي كنز من الأسرار يستعصي على العقل فهمه، ولكنها مُرشد للفكر يشحذه للإبداع ويُلقي الأضواء على كثير من الأفكار التي يسلم بها أكثر الناس تسليماً بغير نقد ولا اختبار"¹. وإذا كانت الأمم القديمة السابقة لليونان قد عرفت حضارات و علوم وفنونا وفكرا يمثل ما نجده في مصر الفرعونية والهند والصين وآشور وبلاد الفرس... الخ، إلا أن محبة الحكمة التي تمثلها الفلسفة باعتبارها نمطا متميزا من التفكير قد اختص به اليونان وينسب إلى عبقرية العقل اليوناني، لهذا لا غرابة في أن نسمع مفاهيم يمثل "المعجزة اليونانية" و "المنطق اليوناني" و "الخلق من عدم". غير أنه، كما يقول عبد الرحمن مرحبا: " ليس معنى هذا أن الأمم الشرقية خلت من كل تفكير فلسفي وتمحيص عقلي، كلا فلقد كان لدى الشرقيين عناصر هامة من التفكير الفلسفي و الحكمة العقلية، لكن هذه العناصر لم ترتق إلى مستوى البحث النظري والرؤية الشاملة الكلية، بل ظلت محجوبة بسحب كثيفة من المذاهب الدينية والأساطير الشعبية والاهتمامات العملية. فضلا عن أنها ظلت مفككة مقطعة الأوصال"². وإذا كان فيثاغورس هو أول من أطلق كلمة فيلسوف على المشتغل بالحكمة، فإن سقراط هو أول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض.

بالنسبة للكثيرين، الفلسفة اليونانية هي الفلسفة بامتياز. في الواقع، تأسست الفلسفة عند الإغريق كنظام مستقل، متميزاً عن الدين والعلوم الوضعية في آن واحد. إنه عندهم ربما تم رفعها إلى أعلى درجة من الاكتمال. وقد ظهرت الفلسفة كما هو معلوم في اليونان ونضجت بالخصوص في عاصمتها أثينا مابين القرنين: السادس والرابع قبل الميلاد مكتوبة

¹ أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، طبعة جديدة، 1998، ص9.

² عبد الرحمن مرحبا، مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت/باريس، ط3، 1988، ص59.

باللغة الإغريقية مستهدفة فهم الكون والطبيعة والإنسان وتشخيص سلوكه الأخلاقي والمجتمعي والسياسي وإرساء مقومات المنهج العلمي والبحث الفلسفي والمنطقي. بدأت الفلسفة اليونانية حوالي 600 قبل الميلاد، وانتهت في القرن السادس الميلادي. في السابق كان لدينا أشعار حكمية، لكن بدون أي طابع تأملي.

لكن إذا كان التفسير العلمي لا يؤمن بالصدفة و العبثية، بل يؤمن بأن لكل ظاهرة سببا أو مجموعة أسباب و شروط تؤدي إلى حدوثها، فهذا المنطق العلمي يقودنا إلى التساؤل عن نشأة الفلسفة عموما و الفلسفة اليونانية بوجه خاص والعوامل التي ساهمت في تشكيل الفكر الفلسفي. غير أن مدخلنا الرئيس الذي سيفيدنا في معرفة هاته الفلسفة ومدارسها بشكل واضح سيختزله التساؤل التالي: لماذا نشأت الفلسفة (التي لم نعد نميزها عن "الحكمة") في العالم اليوناني في بداية القرن السادس قبل الميلاد؟ يوجد هنا سؤال لا يزال مفتوحًا، ولكن تقدمت الدراسات الحديثة على الأقل من خلال استبعاد الإجابات الخيالية. كان هيجل بالفعل ساخرًا بشأن التفسيرات الجغرافية أو المناخية ، لأنه كتب في عام 1821 ، "يعيش الأتراك الآن حيث كان اليونانيون يعيشون يوما ما"³. لاحقًا، سيتحدث رينان عن "المعجزة اليونانية". نحن اليوم مجهزون بشكل أفضل لتحديد بعض الظروف التي جعلت هذه المعجزة المزعومة ممكنة. من هذا المنطلق يجدر بنا طرح التساؤل التالي: ما هي أهم العوامل و الأسباب التي ساهمت في تشكيل و بلورة الفكر الفلسفي عند اليونان؟

-أولا- مراحل الفلسفة اليونانية:

يمكن تقسيم الفلسفة اليونانية في تطورها على مدار 1200 عام إلى ثلاث فترات رئيسية:

1- من طاليس إلى سقراط (من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد)، وهي الفترة التي يعطي لها إدوارد زيلر (Eduard Zeller) اسم المذهبية المادية، وهو مصطلح يمكن تطبيقه على جزء من الفلسفة قبل السقراطية، ولكن لم يعد يشار إليه للحديث عن السوفسطائيين. " يمكن وصف الفترة الأولى بشكل غير دقيق على أنها فترة الفلسفة السابقة

³ محمد بن حامد الأحمرري، ملامح المستقبل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت/لبنان، ط.3، 2010، ص. 143.

على سقراط وإن كانت لا تشمل السوفسطائيين الذين كانوا معاصرين وسابقين في آن واحد على سقراط. وهذه الفترة هي ظهور الفلسفة اليونانية⁴.

2- من سقراط إلى مدرسة الإسكندرية (القرن الرابع قبل الميلاد)، وهي الفترة التي رأى فيها زيلر عصر فلسفة المفاهيم. وُلدت مع سقراط وأفلاطون وأرسطو، ثم تتمفصل بشكل أساسي حول مدرستين رئيسيتين: الأكاديمية (Académie)، التي أسسها أفلاطون، والليسيه (Lycée) أو اللوقيون التي شكلها أرسطو، والتي سرعان ما تفسح المجال لاتجاهين رئيسيين آخرين: الأبيقورية (Epicurisme) والرواقية (Stoïcisme).

3- فلسفة الإسكندرية (من القرن الرابع قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي)، والتي يتحدث فيها زيلر عن الذاتية المجردة. تم تطوير هذه الفلسفة في الإسكندرية وفي الفضاء الثقافي السكندري. وهي ممثلة بالانتقائية (Eclectisme)، التي تحاول تجميع المذاهب السابقة، والأفلاطونية الجديدة (Néo-Platonisme)، التي تتناول موضوعات الأفلاطونية في سياق نزعة التصوف (mysticism).

-ثانيا- عوامل نشأة الفلسفة اليونانية:

1- **العوامل التاريخية:** عادة ما يقسم المؤرخون تاريخ العالم اليوناني القديم إلى فترات ثلاثة؛ أولها: الفترة المبكرة التي ظهرت فيها دول المدن بنظمها السياسية الديمقراطية الحرة، وثانيها الفترة المقدونية التي تمثلت فيها سيطرة مقدونيا (...) وأخيرا استقرت الأمور تحت سيطرة روما وبدأ عصر الامبراطورية الرومانية⁵. ظهرت الحضارة الإغريقية في بلاد اليونان الكبرى مكتملة الوجود ما بين القرنين الخامس والتاسع قبل الميلاد، و توحدت كثير من القبائل والمدن داخل كيان الأمة اليونانية بعد أن كانت متفرقة في جزر بحر الإيجة وآسيا الصغرى ومنطقة البلقان وشبه جزيرة المورة وجنوب إيطاليا وصقلية. وقد أطلق على اليونانيين تسمية الإغريق من قبل الرومان؛ لأنهم كانوا يتكلمون الإغريقية، أما هم فقد كانوا يسمون أنفسهم الآخيين ثم الهلنيين. وقد مرت الحضارة الإغريقية بثلاث مراحل كبرى: العصر الهلنستي ابتداء من 300 ق.م مروراً بالعصر

⁴ كامل محمد عويضة، حصاد الفكر الفلسفي اليوناني، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط1، 1995، ص. 20.

⁵ مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي - المدارس المدارس الفلسفية اليونانية في العصر الهلنستي -، دار المصرية اللبنانية، القاهرة/مصر، ط1، 2013، ص. 9.

الكلاسيكي الذي يعد أزهى العصور اليونانية في عهد الحاكم الديمقراطي بركليس، ويمتد هذا العصر من القرن 350 إلى 500 ق.م ليعقبه العصر الأرخي وهو عصر الطغاة والمستبدين الذين حكموا أثينا بالاستبداد ناهيك عن الحكم الإسبرطي العسكري الذي سن سياسة التوسع والهيمنة على جميع مناطق اليونان، كما مد سلطة نفوذه المطلق على أثينا. وإذا كانت إسبرطة دولة عسكرية منغلقة على نفسها تهتم بتطوير قدرات جيشها على القتال والاستعداد الدائم لخوض المعارك والحروب، فإن أثينا كانت هي المعجزة الإغريقية تهتم بالجوانب الفكرية والثقافية والاقتصادية. وستعرف أثينا في عهد بريكليس نظاما ديمقراطيا مهما أساسه احترام الدستور وحقوق المواطن اليوناني. وإليك نصا خطابيا لبركليس يشرح فيه سياسته في الحكم:\

"إن دستورنا مثال يحتذى، ذلك أن إدارة دولتنا توجد في خدمة الجمهور وليست في صالح الأقلية كما هو الحال لدى جيراننا، لقد اختار نظامنا الديمقراطية. فبخصوص الخلافات التي تنشأ بين الأفراد فإن العدالة مضمونة بالنسبة للجميع، ويضمنها القانون، وفيما يخص المساهمة في تسيير الشأن العام، فلكل مواطن الاعتبار الذي يناله حسب الاستحقاق، ولانتمائه الطبقي أهمية أقل من قيمته الشخصية، ولا يمكن أن يضايق أحد بسبب فقره أو غموض وضعيته الاجتماعية. وتتميز المدن اليونانية بأنها دول مستقلة لها أنظمتها السياسية والاقتصادية وقوانينها الخاصة في التدبير والتسيير والتنظيم، ومن أهم هذه المدن/ الدول أثينا وإسبرطة.

2- العوامل الاقتصادية: من بين الفرضيات الكثيرة لتفسير نشأة الفلسفة في بلاد اليونان نجد التفسير الاقتصادي الذي يكمن في تقديم اليونان كمكان للتبادل التجاري المكثف في تلك الفترة. لقد " عرفت اليونان نهضة كبرى في المجال الاقتصادي لكونها حلقة وصل بين الشرق والغرب، وكان لأثينا أسطول تجاري بحري يساعدها على الانفتاح والتبادل التجاري بين شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط"⁶. إن التجارة كما هو معلوم تزيد في الأعمال وفي نفس الوقت تعزز تدفق الأفكار. " وقد ساهم اكتشاف المعادن في تطوير جوانب الاقتصاد اليوناني وازدهرت الفلاحة، وكان العبيد يسهرون على تفليح الأراضي وحصد الناتج الزراعي، ونتج عن هذا الازدهار الاقتصادي رخاء مالي اجتماعي"⁷. وقد ساعد هذا

⁶ عبد العزيز الشرقاوي، الذكاء بين النوعية والشمولية، دار المعارف، القاهرة/مصر، ط.1، 2013، ص. 41.

⁷ عبد العزيز الشرقاوي، الذكاء بين النوعية والشمولية، دار المعارف، القاهرة/مصر، ط.1، 2013، ص. 41.

الاقتصاد المتنامي على ظهور طبقات اجتماعية جديدة إلى جانب طبقة النبلاء كالتجار وأصحاب الصناعات وأرباب الحرف والملاحين الكبار. ونتج عن هذا الازدهار الاقتصادي رخاء مالي واجتماعي وسياسي وفكري، وتبلورت طبقة الأغنياء التي ستتنافس على مراتب الحكم والسلطة وتسيير مؤسسات الدولة التمثيلية لتسيير شؤون البلاد. ومع ذلك، فإن هذه الوضعية الاقتصادية غير كافية لتفسير نشأة وتطور النهج التساؤلي حول حالة الإنسان وحالة الطبيعة.

3- العوامل السياسية: " لم تصل اليونان إلى حضارتها المزدهرة إلا في جو سياسي ملائم لانبثاق مقومات هذه الحضارة "8، فقد تخلصت الدولة المدينة وخاصة أثينا من النظام السياسي الأوليغارشي القائم على حكم الأقلية من نبلاء ورؤساء وشيوخ القبائل والعشائر الذين كانوا يملكون الإقطاعيات والأراضي الواسعة التي كان يشتغل فيها العبيد الأجانب. وثار الأغنياء اليونانيون الجدد على الأنظمة السياسية المستبدة كالنظام الوراثي والحكم القائم على الحق الإلهي أو الحق الأسري. " ومع انفتاح اليونان على شعوب البحر الأبيض المتوسط وازدهار التجارة البحرية ونمو الفلاحة والصناعة والحرف ظهرت طبقات جديدة كأرباب الصناعات والتجار الكبار والحرفيين وساهموا في ظهور النظام الديمقراطي وخاصة في عهد بريكليس وكليستين"9، ذلك النظام الحر الذي يستند إلى الدستور وحرية التعبير والتمثيل والمشاركة في الانتخابات على أساس المساواة الاجتماعية ، بل كانت تخصص أجرة عمومية لكل من يتولى شؤون البلاد ويسهر على حل مشاكل المجتمع. من أجل ذلك كتب الفيلسوف برتراند راسل كتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية في صلتها بالظروف السياسية والاجتماعية ... لأن تفكير الفيلسوف يتأثر دون نزاع بالبيئة السياسية والاجتماعية ما دام يعيش فيها ويحاول تحليلها ومعرفة الأصول التي يقوم المجتمع عليها

10"

4- العوامل الجغرافية: كانت اليونان في القديم من أهم دول البحر الأبيض المتوسط لكونها مهد المدنية والحضارة والحكمة ومحل الفكر العقلاني والمنطق الإنساني. وإذا استعدنا

⁸ عبد العزيز الشرفاوي، الذكاء بين النوعية والشمولية، دار المعارف، القاهرة/مصر، ط.1، 2013، ص. 41.

⁹ عبد العزيز الشرفاوي، الذكاء بين النوعية والشمولية، دار المعارف، القاهرة/مصر، ط.1، 2013، ص. 41.

¹⁰ أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية - قبل سقراط -، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة/مصر، ط.1، 1954، ص. 3.

جغرافيا اليونان إبان ازدهارها فهي تطل جنوبا على جزيرة كريت العظيمة، ويحيطها شرقا بحر إيجه وآسيا الوسطى التي كانت تمد اليونان بمعالها الحضارية وثقافات الشرق ، وفي الغرب عبر أيونيا تقع إيطاليا وصقلية وإسبانيا، وفي الشمال تقع مقدونيا وهي عبارة عن شعوب غير متحضرة .وتتشكل اليونان على مستوى التضاريس من جبال شاهقة وهضاب مرتفعة وسواحل متقطعة ووديان متقعة. وقد قسمت هذه التضاريس بلاد اليونان إلى أجزاء منعزلة وقطع مستقلة ساهمت في تبلور المدن التي كانت لها أنظمة خاصة في الحكم وأساليب معينة في التدبير الإداري والتسيير السياسي. وتحولت المدينة اليونانية إلى مدينة الدولة في إطار مجتمع متجانس وموحد ومتعاون. وتحيط بكل مدينة سفوح الجبال والأراضي الزراعية، وكانت من أشهر المدن اليونانية أثينا وإسبارطة. وكانت أثينا مهد الفلسفة اليونانية وتقع في شرق إسبارطة ، وموقعها متميز واستراتيجي؛ لأنها الباب الذي يخرج منه اليونانيون إلى مدن آسيا الصغرى، وعبر هذه المدن كانت تنقل حضارة الشرق إلى بلاد اليونان. ومن أهم ركائز أثينا اعتمادها على مينائها وأسطولها البحري. وبين عامي 470-490 قبل المسيح ستترك أثينا وإسبارطة صراعيهما وتتوحدان عسكريا لمحاربة الفرس تحت حكم داريوس الذي كان يستهدف استعمار اليونان وتحويلها إلى مملكة تابعة للإمبراطورية الفارسية. ولكن اليونان المتحدة والفتية استطاعت أن تلحق الهزيمة بالجيش الفارسي. وقد شاركت أثينا في هذه الحرب الضروس بأسطولها البحري، بينما قدمت إسبارطة جيشها القوي، وبعد انتهاء الحرب سرحت إسبارطة جيوشها وحولت أثينا أسطولها العسكري إلى أسطول تجاري، ومن ثم أصبحت أثينا من أهم المدن التجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط. هذا، وقد عرفت أثينا نشاطا فكريا وفلسفيا كبيرا بفضل الموقع الجغرافي والنشاط التجاري ونظامها السياسي الديمقراطي وتمتع الأثيني بالحريات الخاصة والعامة وإحساسه بالمساواة والعدالة الاجتماعية في ظل هذا الحكم الجديد . وفي هذا يقول ول ديورانت:\ " كانت أثينا الباب الذي يخرج منه اليونانيون إلى مدن آسيا الصغرى، فأصبحت أثينا إحدى المدن التجارية العظيمة في العالم القديم، وتحولت إلى سوق كبيرة وميناء ومكان اجتماع الرجال من مختلف الأجناس والعادات والمذاهب وحملت خلافتهم واتصالاتهم ومنافساتهم إلى أثينا التحليل والتفكير... وبالتدرج تطور التجار بالعلم،

وتطور الحساب بتعقيد التبادل التجاري، وتطور الفلك بزيادة مخاطر الملاحة، وقدمت الثروة المتزايدة والفراغ والراحة والأمن الشروط اللازمة في البحث والتأمل والفكر.

5- العوامل الفكرية: ومع ازدهار الاقتصاد ودمقرطة الحكم السياسي وانفتاح الدولة على شعوب البحر الأبيض المتوسط وانصهار الثقافات انتعشت اليونان ثقافيا وفكريا وتطورت الآداب والفنون و العلوم. ففي مجال الأدب نستحضر الشاعر هوميروس الذي كتب ملحمتين خالدين: الإلياذة والأوديسة، ونذكر كذلك أرسطو الذي نظر لفن الشعر والبلاغة والدراما التراجيدية في كتابيه: "فن الشعر" و"فن الخطابة". وتطور المسرح مع سوفكليس ويوربيديس وأسخيلوس وأريستوفان، وانتعش التاريخ مع هيرودوت وتوسيديد والتشريع مع الحكيم سولون، وتطور الطب مع أبقرات أب الأطباء ، والرياضيات مع طاليس و المدرسة الفتاغورية ، دون أن ننسى ظهور الألعاب الأولمبية مع البطل الأسطوري هرقل، وتطور الفلسفة مع الحكماء السبعة والفلاسفة الكبار كسقراط وأفلاطون وأرسطو.

المحاضرة الثانية

التفكير الأسطوري

-أولا- المفهوم الاصطلاحي للأسطورة: لما كانت الأسطورة حاوية للعناصر الثقافية شديدة التعقيد كان من الصعب علينا إيجاد تعريف متفق عليه يكون في متناول المتخصصين والمهتمين والدارسين على سواء. أضف إلى ذلك نسبة التشابه بين مصطلح الأسطورة ومصطلحات أخرى، كان لزاما التوقف مطولا مع هذا المصطلح بغية توضيحه وتحديد بدقة قدر الإمكان. جاء في قاموس علم الاجتماع أن الأسطورة هي: "تفسير أو قصة رمزية تروي حادثة غريبة، أو خارقة للطبيعة، توجد في ثقافة فرعية، وتتميز الأسطورة بتناقضها، وانتشارها على نطاق واسع، وتأثيرها العميق نتيجة ما تنطوي عليه من حكمة، وفلسفة وإثارة وإلهام"¹¹، وبقراءة عابرة لهذا التعريف نجد أنه ليس خاصا بالأسطورة بل تشترك فيه أيضا الخرافة والملحمة، والحكايات الشعبية... لذلك سنقف مع تعريف آخر: فقد اهتم الباحثون في القرن التاسع عشر بأصل الأساطير إلا أن علماء الأنثروبولوجيا تجنبوا البحث فيه لأن العديد منهم يعتقدون أن الأسطورة جزء من نسق اجتماعي، يتكون من عناصر

¹¹ محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية/مصر، ط.1، 2008، ص. 296.

معاصرة فنجد برنوسلاف مالىنوفسكي مثلاً: حاول أن يضع تعريفاً للأسطورة من خلال استخلاص طبيعتها ووظيفتها في المجتمعات البدائية: "ليست الأسطورة تفسيراً يراد منه تلبية فضول علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية، وتستجيب لحاجة دينية عميقة، وتطلعات أخلاقية وواجبات، وأوامر على المستوى الاجتماعي، بل وحتى متطلبات عملية في الحضارات البدائية، تملأ الأسطورة وظيفة لا غنى عنها تفسر وتبرر وتقنن المعتقدات، تحامي عن المبادئ الأخلاقية وتفرضها، تضمن فعالية الاحتفالات الطقسية وتنتج قواعد عملية لاستعمال الإنسان"¹²، الأسطورة مكون جوهري في الحضارة الإنسانية، ليست خيالاً بل حقيقة قائمة بذاتها يلجأ إليها الإنسان لتعينه على كشف حقيقة معنى الطقوس والأعمال التي يؤديها على الصعيد الأخلاقي، وبيان الأسلوب الذي ينبغي عليه أدائه به. وإذا كان مالىنوفسكي قد تعرض إلى الأسطورة بالنظر إلى جانبها الوظيفي فإن مرسيا إلياد تناولها باعتبارها "أحداثاً تاريخية حدثت في الزمن السحيق" فالأسطورة تروي تاريخاً مقدساً، تروي حدثاً جرى في الزمن البدائي، الزمن الخيالي، هو زمن البدايات؛ فالأسطورة تحكي لنا كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر اجتريحتها الكائنات العليا، لا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية كالكون أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعاً من النبات، أو مسلكاً يسلكه الإنسان أو مؤسسة"¹³، فلا تزيد الأسطورة عن كونها حكاية خلق تروي لنا كيف كان إنتاج شيء ما وكيف كانت بدايته أما أشخاصها فهم كائنات عليا (آلهة، أو كائنات متوسطة بين الآلهة والإنسان)، من هنا تأتي أهمية ميثولوجيا التكوين في أديان الشعوب وعلو شأن أسطورة الخلق في النظم الميثولوجية، لذلك كانت أسطورة التكوين البابلية هي سيدة أساطير تلك الثقافة "لم يكن هناك سماء في الأعلى، ولم يكن هناك أرض في الأسفل، لم يكن هناك سوى آلهة العماء القابعة وراء الزمن والمعارضة لأية حركة أو فعل، ثم جاء الإله الخالق مردوخ ليبتدئ سيرة حياته مع سيرة حياة الكون الذي أخرجه من لجة العماء البدائي"¹⁴. ولذلك أيضاً تنصدر أسطورة التكوين التوراتية الصفحة الأولى من كتب العهد القديم "ففي البدء خلق الإله السماوات والأرض، وكانت

¹² محمد الخطيب، الإثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء للنشر والتوزيع والترجمة، دمشق/سوريا، ط.2، 2000، ص. 194.

¹³ مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق/سورية، ط.1، 1991، ص.10-11.

¹⁴ فراس السواح، دين الإنسان - بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني -، منشورات دار علاء، دمشق/سورية، ط.4، 2002، ص. 60.

الأرض خربة وخالية على وجه الغمر ظلمة وروح الإله يرف فوق وجه المياه" وقبل ذلك لا يعرف ما كان يفعل الإله يهوه¹⁵. كانت الأسطورة بمثابة جواب عن السؤال كيف خلق ذلك الشيء؟ وبالأسطورة أيضا "يمكن التعرف على أصل الأشياء ليتمكن الطقس الديني من إعادة تكراره، ذلك أن الطقس يقوم بإعادة تكرار حدوث الخلق الذي يمكن الإنسان من الاتصال بالآلهة وبزمن الخلق الأول"¹⁶. وفي مقابل هذا نجد ماريت يقول إن "الأسطورة ليست بحثا عن الأسباب وإنما هي كفالة للدين وضمان وليست غايتها أن ترضي الفضول بل أن تؤكد الإيمان"¹⁷.*** تكون الأسطورة وسيلة توضح الإيمان وتقويه، وهي تضمن فعالية الطقس الذي تعيش فيه من جديد باعتبار أن الأسطورة هي الجزء المحكي من الطقس. وهناك تعريفات أخرى للأسطورة لكنها بالغت في بعدها عن جوهر الأسطورة مثل ما ذهب إليه ماكس مولر- وهو من أكبر المشتغلين بالأساطير- إلى أنها "تصوير فترة من الجنون كان على العقل البشري أن يجتازها"¹⁸. إن هذا التنوع في النظر إلى الأساطير، لا يبرره إلا الغموض العميق الذي يحيط بهذا الموضوع. إضافة إلى ذلك أن الاستخدام العلمي لكلمة أسطورة قد يسبب سوء فهم آخر بسبب أن الكلمة تعني في الأوساط الشعبية الباطل أو الخرافة. وباعتبار أن الأسطورة ظاهرة إنسانية يمكن عرض تعريف آخر قد يكون أكثر دقة وتحديد لوظيفتها وهو تعريف فراس السواح: الأسطورة وهي ظاهرة من أهم ظواهر الثقافة الإنسانية لها أجناس أدبية مشابهة لها من حيث الشكل مثل الخرافة والحكاية البطولية...

-ثانيا- خصائص الأسطورة: حتى نميز النص الأسطوري من غيره فقد وضع بعض الباحثين أسسا في بناء الأسطورة من حيث محتواها قبل تقديم تعريف لها. **-1- من حيث الشكل:** الأسطورة هي قصة، وتحكمها مبادئ السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات، وما إليه، وغالبا ما تجري صياغتها في قالب شعري ساعد على ترتيلها في المناسبات الطقسية، ويزودها بسلطان على العواطف والقلوب. **-2- يحافظ النص الأسطوري على ثباته عبر فترة طويلة من الزمن، وتناقله عبر الأجيال طالما حافظ على**

¹⁵ فراس السواح، دين الإنسان - بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني -، منشورات دار علاء، دمشق/سورية، ط.4، 2002، ص. 60.

¹⁶ عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت/لبنان، ط.1، 1998 ص35.

¹⁷ إ. أجيمس، الأساطير والطقوس في الشرق الأدنى القديم، ترجمة يوسف شلب الشام، دار التوحيد للنشر والتوزيع، ط.1، 1998، ص21.

¹⁸ أحمد كمال زكي، الأساطير، دار الكاتب العربي للنشر، القاهرة/مصر، ط.؟، 1967، ص41.

طاقته الإيحائية بالنسبة للجماعة كما هو الشأن بالنسبة للأساطير السومرية التي حافظت على صيغتها الأصلية قرابة الألفي سنة من الألف الثالث قبل الميلاد إلى الألف الأول قبل الميلاد إلا أن هذه الخاصية لا تعني الجمود أو التحجر لأن الفكر الأسطوري يجدد أساطيره دائماً، إما بالتخلي عن الأساطير التي فقدت طاقتها الإيحائية أو تعديلها. -3- لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي أو حكمة شخص يعينه، بل إنها ظاهرة جمعية تعبر عن تأملات الجماعة، وحكمتها، وخلاصة ثقافتها، ولا يمنع هذا الطابع الجمعي أن يقوم الأفراد بإعادة صياغة الحكايات الأسطورية، وفق صيغة أدبية تتماشى وروح عصرهم. لذلك لا تعتبر محاورات أفلاطون أساطير، وإن أطلق عليها هذا المصطلح لأنها لا تعبر عن تجربة جمعية مشتركة. -4- تلعب الآلهة وأنصاف الآلهة (الكائنات المتوسطة) الأدوار الرئيسية في الأسطورة فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملًا لا رئيسيًا. -5- تتميز موضوعات الأسطورة بالجدية والشمولية فهي تدور حول المسائل الكبرى التي تعن دوماً على عقل الإنسان مثل: الخلق والتكوين، وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر...الخ؟ -6- ليس للأسطورة زمن، أي أنها لا تقص عن حدث جرى في الماضي وانتهى، بل عن حدث ذي حضور دائم. فزمانها والحالة هذه زمن مائل أبداً لا يتحول إلى ماضٍ، والأحداث التي تقصها الأسطورة هي أحداث حقيقية، يؤمن أهل الثقافة التي أنتجتها بصدق روايتها إيماناً لا يتزعزع، فالإله تموز (إله الخصوبة) الذي قتل ثم بعث إلى الحياة إنما يفعل ذلك في كل عام، إذ يقتل في الصيف (فيكون الجفاف) ويبعث في الربيع فتصبح الأرض مخضرة. وهذا يتجدد في كل عام والإله مردوخ (إله بابل وآشور) الذي خلق الكون ونظمه في الأزمنة المقدسة الأولى إنما يفعل ذلك في كل عام ومع بداية السنة الجديدة، حيث يقوم بإعادة خلق الكون وتجديده، وعندما لا يكون للحدث الأسطوري هذا الطابع الدوري المتكرر الواضح، فإن مضمون الأسطورة يعبر عن حقيقة أزلية متخللة في حياة البشر، لا يطالها تغيير، فأسطورة خلق الإنسان من تربة الأرض ممزوجة بدم إله قنيل هي تأسيس لفكرة الطبيعة المزوجة للإنسان وتكوينه من عنصر مادي وآخر روحاني لاهوتي. -7- سطوة الأسطورة وسلطانها على عقول الناس ونفوسهم، ومؤيدات هذه السلطة تنبع من داخل الأسطورة لا من خارجها وهي عندما تتصدى لمسألة من المسائل الشمولية،

فإنها لا تطرح موضوعها على بساط البحث والتحليل وإنما تتقدم بحقائق لا تقبل الجدل. فسيطرة الأسطورة التي تمتعت بها في الماضي لا يدانيها سوى قوة العلم في العصر الحديث، وبأن الكون مؤلف من مليارات المجرات... الخ؟، وذلك لأن باهين واستدلالات العلم قد أثبتت ذلك، وفي الماضي آمن الإنسان القديم بكل العوالم التي نقلتها له الأسطورة، مثلما نؤمن وبدون نقاش بما ينقله لنا العلم والعلماء، وكان الكفر بمضامينها كفرا بكل القيم التي تشد الفرد إلى جماعته وثقافته وفقدانا للتوجه السليم في الحياة. ومن ذلك تكون شبيهة بالعلاقات البرهانية التي لا تقبل التكذيب أو التصويب وصدقها متعلق بعبارتها لا بالزمن وتطور الحوادث.***وبالاعتماد على الأسس السابقة يمكن أن نصل إلى تعريف للأسطورة يمهّد الطريق أمام الباحث في الميثولوجيا ويزيل كل لبس حول المصطلح: فالأسطورة هي: "حكاية مقدسة مؤيدة بسلطان ذاتي، وذات مضمون عميق يشف عن معان ذات صلة بالوجود والكون وحياة الإنسان". ونعني بالقدسية هنا تلك الصفة التي يتم إسباغها على الخطاب الديني فقط الذي لا يقبل التصويب؛ بل ذلك الإجلال والتعظيم الذي تستثيره الأسطورة بسبب وضعها المتميز بحق. ونقصد بالسلطان الذاتي الأساس الأخير سطوة الأسطورة وسلطتها على عقول وقلوب الناس بدلالة محتواها، وتكون جملة مفاهيم الأسطورة أنها حاوية تتضمن رواية أو حدثا أو علاقة حكمية وخلقية.

استنتاج: والاسطورة بشكل عام والدينية منها على وجه خاص تقوم على منطق غير واقعي توهمي، روعي، خيالي، يأخذ من الابهار هدفا وهي لا تتمسرح على خشبة ذات ابعاد زمكانية اي ان الاسطورة لا تعتمد على منطق تاريخي (له تزامن، وجغرافيا).

-ثالثا- نظريات تفسير أصل الأسطورة: يقدم لنا توماس بوليفنش في كتابه "ميثولوجية اليونان وروما" أربع نظريات في أصل الأسطورة لخصها فيما يلي¹⁹:

***1* النظرية الدينية:** ترى أن أصل الأسطورة هو الدين في مراحل الأولى فالدين في بدايته كان يقوم على الأسطورة، حيث كان لهذه الأخيرة الحضور الأقوى في تشكيل بنية الدين. وقد عالجت الأسطورة الدينية طقوس العبادة وارتبطت بها، ويعتقد لويس سبنسر أن الاسطورة كانت في الاساس شكلا من أشكال طقوس العبادة. حيث كانت بدايتها على شكل

¹⁹ خليل تادرس، أحلى الأساطير الإغريقية، دار كتابنا للنشر، لبنان، ط.؟، ص.8.

مسرحية دينية طقوسية رقصية ايمائية تصويتية ثم أصبحت اناشيد دينية لتحفظ او تدون في صورة نقوش تصويرية ثم اسطرت كتابيا وأخذت صورتها التي انتقلت بين الحضارات. هكذا فإن "حكايات الأساطير، حسب بوليفنش، مأخوذة كلها من الكتاب المقدس مع الاعتراف بأنها غُيّرت أو حُرِّفت، ومن ثَمَّ كان هرقل اسماً آخر لشمشون، والمارد ديوكاليون ابن بروجميتيوم الذي أنقذه زيوس مع زوجته من الغرق فوق أحد الجبال هو نوح، وهكذا"²⁰. من هنا لا يمكن قبول الأسطورة إلا على مبدأ ايماني لا علمي، باعتبار أن العقلانية العلمية لا تؤمن سوى بالمعطيات التجريبية التحليلية وفق منطق مادي يكشف العلاقة بين السبب والنتيجة. كما تجدر الإشارة إلى أن الاسطورة الدينية عموماً هي خطاب مطلق غير قابل للتشكيك، ومن الشواهد الحديثة على هذا الأمر طرد سبينوزا من كنيسة امستردام واتهامه بالهرطقة بسبب شكه في ان الاسفار الخمسة الاولى من الكتاب المقدس قد كتبت من قبل موسى عليه السلام. نفس الحال عاشه جورج سميث حينما نشر أجزاء من اسطورة الطوفان المتضمنة في ملحمة جلجامش والمشباهة في روايتها لقصة نوح الموجودة في التوراة، وهو الأمر الذي جعله عرضة لموجة من الاعتراضات من طرف أتباع الكنيسة البروتستانتية الانجليزية.

***2* النظرية التاريخية:** التي تذهب إلى أن أعلام الأساطير عاشوا فعلاً وحققوا سلسلة من الأعمال العظيمة، ومع مرور الزمن أضاف إليهم خيال الشعراء ما وضعهم في ذلك الإطار الغرائبي الذي يتحركون خلاله في جو الأسطورة"²¹.

***3* النظرية الرمزية:** يعتقد ممثلو هذا التصور أن معظم الاساطير تنطوي على بعد رمزي، وتكمن أهمية استخدام الرمز في نسيج الأسطورة في كون الرموز تشكل صورة حسيّة، مولدة للمعنى ومسكونة به. وهو ما يعكس قيمة الوظيفة الدلالية والجمالية، التي يحققها الترميز الأسطوري. في إطار هذا التفسير نجد أن أنصار علم النفس التحليلي يعتبرون أن الأسطورة مجرد ترجمة للاشعور الجمعي، فهي محاولة للتعبير الثقافة الجمعية وعن الرغبات المكبوتة، لذلك فإن محاولة استحضارها يفترض استحضار المجال التخيلي

²⁰ خليل تادرس، أحدى الأساطير الإغريقية، دار كتابنا للنشر، لبنان، ط.؟، ص. 9.

²¹ خليل تادرس، أحدى الأساطير الإغريقية، دار كتابنا للنشر، لبنان، ط.؟، ص. 9.

و الوجداني ودلالاتها الرمزية الموحية. إن ما سبق يدل على أن "كل الأساطير بكل أنواعها ليست سوى مجازات فُهمت على غير وجهها الصحيح أو فُهمت حرفيًا، من ذلك ما يقال عن أن "ساتورن" يلتهم أولاده، فقد أخذه الإغريق من أسطورة كرونوس أي الزمن الذي يأكل كل ما يوجد فيه"²². كما أن "أسطورة سيزيف" ترمز إلى الاستمرار والعمل والتفاؤل وتكرار الفعل، فهي تحمل معنى أنه "لا يأس مع الحياة".

***4* النظرية الطبيعية:** "وبمقتضاها يتم تخيل عناصر الكون من ماء وهواء ونار في هيئة أشخاص أو كائنات حية، أو أنها تختفي وراء مخلوقات خاصة.. وعلى هذا النحو وجد لكل ظاهرة طبيعية – ابتداءً من الشمس والقمر والبحر وحتى أصغر مجرى مائي - كائن روحي يتمثل فيه وتنبني عليه أسطورة أو أساطير"²³. ويرى اتباع المنهج الطبيعي أن الاسطورة هي نتيجة لإدراك الانسان لجهله، وقد استخدم الإنسان الاسطورة كمرجع معرفي يجيب من خلالها الإنسان عن تساؤلاته الاولى تجاه الوجود. في هذا الصدد يعتقد فراس السواح ان الاسطورة هي تسجيل لمغامرة العقل الاولى في ليل جهل الانسان البدئي، في حين أنها، حسب جيمس فريزر، بمثابة محاولة الانسان لتفسير الكون والطبيعة وتبدلاتها، اما ماكس مولر فيرى ان الاسطورة تمثل مرحلة اصاب فيها العقل البشري بالجنون وهي مرحلة ضرورية صيرورية في التطور الفكري الانساني.

-رابعاً- الأساطير في بلاد ما بين النهرين: كان الدين هو الأساس الرئيسي المهيمن على كل نواحي الحياة البشرية في الحضارات الشرقية القديمة عموماً. وقد كانت رؤية أهل شعب الرافدين إلى الأدب والفن و القانون قديماً هي نفسها نظرة الشرق الأدنى كله التي ترتبط بالدوافع الدينية. لقد مثل الدين خلاصة القيم البشرية، أما التأمل الفلسفي فلم يتيسر إلا بعد ذلك مع اليونان. إن الآلهة السامية هي آلهة سومرية إلى حد كبير، تقبلها الغزاة المنتصرون مع بعض التعديل؛ كما امتزجت الآلهة البابلية والآشورية و تفاعلت مع بعضها البعض بتغير الأزمان و الأحوال في أرض الرافدين؛ في حين أن الدين الأكادي فهو كثير الآلهة التي هي مشابهة في صفاتها للإنسان، إلا أنها أكثر كمالات وتجريداً عنها. إن لباس

²² خليل تادرس، أحدى الأساطير الإغريقية، دار كتابنا للنشر، لبنان، ط.؟، ص. 9.

²³ خليل تادرس، أحدى الأساطير الإغريقية، دار كتابنا للنشر، لبنان، ط.؟، ص. 9.

الآلهة كلباس البشر لكنها أبهى من ثياب الأمراء يخطف بريقها الأبصار. كما أن للآلهة أسرار وأسلحة، وصراعها كصراع الناس لكنه أعظم وأهول. ولعل هذه النظرة إلى الآلهة أقرب إلى نظرة هوميروس في أشعاره منها إلى نظرة الأديان السامية عامة.* و يعتبر كل من "أنو" (إله السماء)، "أنليل" (إله الهواء) و "إيا أو إنكي" (إله الأرض) هو الثالوث الأسمى بين آلهة الرافدين؛ كما أن هناك ثلوث آخر يتكون من أجرام سماوية: الشمس، القمر، كوكب الزهرة، و بتطور الدين صار لكل إله نجمه الخاص، و بتقدم علم التنجيم زادت عبادة النجوم. و كان "أداد أو أدد"، إلها آخر من آلهة الطبيعة، إله الرعد والصواعق، عبده السكان واعتقدوا أنه الإله الذي سبق الطوفان حسبما تروي ملحمة جلجامش. كما عبد شعب بلاد ما بين النهرين النار في شخص الإله "نسكو". و لعل من أشهر الآلهة نجد "عشتار" آلهة الخصوبة والجمال البابلية، وهي "إنانا" السومرية، وهي ابنة الإله "سين" وهي تمثل نجمة الزهراء وتقابل "عشتار" فيما بعد، وهي تمثل الحب واللذة والتوالد والحرب، وقد أحببت (جلجامش) و(دموز) و(شروكين) ولم تخلص لأحد فاعتبروها خيانة المرأة. كما كان في كل من بابل و آشور إلهين، قومي الطابع (نظرة سياسية)، وكانت تحاك حول هذا أو ذاك روايات عن أصل العالم وتنظيمه، حيث نجد الإله "أشور" الذي نسب إليه الآشوريون (عبدة آشور)، والإله "مردك" في بابل الذي بلغ السيادة في دولة حمورابي. لقد كانت عبادة هذه الآلهة بالغة الأهمية في بلاد ما بين النهرين، ونشأت حولها سلسلة طويلة من الأساطير. و من أشهر الملاحم الدينية الكبيرة التي تقص أساطير الآلهة في هذه البلاد وتبرز الاهتمام بقضايا الأصول الأولى للإنسان ومصيره، باعتبار أن الجزء الأكبر منها يعنى بموضوع خلق العالم وما ينتظر الإنسان بعد الموت، نجد القصيدة الأكادية "أنوما إليش"، إضافة إلى أسطورة نزول عشتار إلى العالم السفلي أو أرلو، وثمة أسطورة أخرى تتعلق بما وراء القبر وهي أسطورة نرجل و أرشكيل. غير أن أسطورة جلجامش، التي تعتبر أبرز أساطير الأبطال، ولعلها أقدم من أسطورة "أنوما إليش"، هذا الرجل الذي يبحث عن الخلود لكنه في النهاية لن يتمكن من تحقيقه، فالأبطال أنفسهم لا يستطيعون الفرار من الموت و طرق المجد لا تؤدي إلا إلى القبر، وهو نفس ما تروي قصيدة أو ملحمة آدابا التي تعالج على نحو مختلف فكرة سعي الإنسان إلى الخلود وفشله في ذلك.* أما في الحضارة الكنعانية فقد كان

"آل" رأس آلهة الكنعانيين، و هو اسم عام معناه "إله"، وقد استعملته شعوبا كثيرة للدلالة على الإله الأكبر، وذكره في الأساطير أقل من الآلهة الأخرى، و زوجته هي الإلهة "أثرت أو أثيرة أو إيلات" المذكورة في التوراة تحت اسم "أشيرا". و كان "بعل" من أبرز الآلهة الكنعانية كذلك، وهو مركز مجموعة أخرى من الآلهة، معناه "السيد"، و ثمة آلهة أخرى مشتقة من الاسم "ملك"، و ذلك في الصيغة "ملكوم"، كما نجد "عشتاروت"، "تموز"، "أدونيس". و من بين أهم الأساطير نجد ملحمة الإله بعل و الإلهة عنت وذلك لطولها و أهمية موضوعها، إضافة إلى قصيدة "السحر والغروب" التي تروي في جزئها الأول الطقوس والترانيم الموجودة في احتفال ديني يقام في موسم جني العنب، ويقص جزءها الثاني قصة ميلاد إلهين، أبوهما "آل" و اسمهما "السحر" و "الغروب".

-خامسا- الأسطورة في الفكر اليوناني القديم: -1- نعطي اسم "الميثولوجيا/ الأساطير" اليونانية لمجموع القصص الرائعة والخرافات من جميع الأنواع بما التي تظهر لنا النصوص والآثار التصويرية أنها حدثت في البلدان الناطقة باللغة اليونانية، بين القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد، الفترة التي شهدت القصائد الهوميرية (نسبة لهوميروس)، ونهاية "الوثنية"، ثلاثة أو أربعة قرون بعد المسيح. توجد هنا مادة كبيرة جدا، جد صعبة على التحديد، ذات أصول و طبيعة جد متنوعة، و التي حصل أن لعبت و لا تزال تلعب دورا كبيرا في التاريخ الروحي للعالم. إن جميع الشعوب، في فترة ما من تطورها، قد أنتجت خرافات، أي حكايات رائعة أضافوا إليها لزمان ما الإيمان على الأقل إلى حد ما. في معظم الأحيان، الخرافات، لكونها تقحم قوى أو كائنات تعتبر متفوقة على البشر، تنتمي إلى مجال الدين. إنها تتمثل إذن بوصفها نسق، أكثر أو أقل تماسكا، لتفسير العالم، كل واحدة من حركات البطل الذي نحكي أمجاده وبطولاته تجد نفسها خلاقة ومولدة لنتائج سوف تؤثر على الكون كله. ينتمي لهذا النمط القصائد الملحمية-الدينية الكبرى في الأدب الهندي. في بلدان أخرى، نجد أن هذا العنصر الملحمي هو الغالب. ومما لا شك فيه أن الآلهة لم تكن غائبة عن السرد، حيث نجد عملها حساس، ولكن نشأة العالم لم تكن، مع ذلك، محل اهتمام. لقد كان البطل يكتفي بإعطاء ضربات سيف كبيرة، ويبتكر حيل خالدة، و يقوم برحلات و أسفار في بلدان رائعة و، حتى وإن كان يتجاوز أيضا القدرة البشرية، فإنه يظل مع ذلك من

نفس الماهية الإنسانية. إلى هذا النوع تنتمي خصوصا الدورات الخرافية للسلتيين (Celts)، التي عرفتنا بها الروايات الويلزية، على سبيل المثال. في مكان آخر أيضا، حكايات الأسطورة انتهى بها المطاف إلى فقدان كل طابع عجيب تقريبا، ويحتجب تحت مظاهر التاريخ. الرومان، على وجه الخصوص، يبدو أنهم ادمجوا هذه الطريقة في أقدم تأريخهم حركات خرافية حقيقية: بطولة هوراسيوس كوكليس (Horatius Cocles) حينما دافع عن جسر نهر التيبر ضد الغزاة ليس سوى، كما يقال، تجسد شيطان أعور في التمثال الذي، الموضوع على ضفاف النهر، فقد دلالاته الأصلية ووظف في نهاية المطاف في افتعال حلقة من الحرب (في جزء تاريخي) بين الرومان والأتروريون.*** إن الأسطورة، في اليونان، ساهمت في كل هذه الأشكال. أحيانا أخذت صورة التاريخ، و عملت على تسجيل مآثر الشرف للمدن و للعائلات. و أحيانا ظهرت في شكل ملحمة. أحيانا أخرى، جاءت لتدعيم و تفسير معتقدات و طقوس الدين. لا واحدة من الوظائف التي كانت تلبسها في موضع آخر الخرافة لم تفلت منها، أي أنها قد شملت كل مجالاتها. ولكن هي شيء آخر تماما. الكلمة اليونانية المستخدمة لوصف (؟؟؟؟) تنطبق على أي قصة نرويهها، سواء كانت موضوع مأساة (تراجيديا) أو عقدة لكوميديا أو موضوع خرافة (حكاية) إيسوب (fable d'Ésope). إن الأسطورة تتعارض مع اللوغوس، مثلما يتعارض الخيال مع العقل، الكلام الذي يحكي (يروى) مع ذلك الذي يبرهن. اللوغوس و الميثوس هما نصفي اللغة، وظيفتين أساسيتين متساويتين لحياة الفكر. اللوغوس، باعتباره تفكيراً، يعني الإقناع؛ إنه يؤدي، عند المستمع، ضرورة اتخاذ موقف. اللوغوس حقيقي، إن كان صحيحاً و مطابقاً لـ "المنطق"؛ وهو خاطئ، إن كان يخفي بعض الخدع و المغالطات السرية ("سفسطة"). ولكن "الأسطورة" ليس لها من غاية سوى ذاتها. إمانعتقد بصحتها أو لا، وفقا للذته، من خلال فعل إيمان، إذا رأينا أنها "حسنة" أو ممكنة، أو ببساطة لأننا نريد تصديقها. الأسطورة تجد نفسها تجلب إلى محيطها كل الجانب اللاعقلاني للتفكير البشري: إنها، من خلال طبيعتها ذاتها، مرتبطة بالفن، في كل إبداعاته. و هذا هو، ربما، الطابع الأكثر جاذبية للأسطورة الإغريقية: نلاحظ أنه أدخل نفسه في جميع نشاطات الفكر. لا وجود لأي مجال للهللينية، سواء الفنون البلاستيكية أو الأدبية، لم يلجأ باستمرار إلى الأسطورة. بالنسبة

للإغريقي، لا تعرف الأسطورة حدوداً إطلاقاً. إنها تندس في كل مجال. إنها ضرورية و أساسية للتفكير مثل ضرورة الهواء و الشمس للحياة نفسها. إن أهم الملاحم الأولى المعروفة اليوم باللغة اليونانية، والمتمثلتان في الإلياذة (Iliade) والأوديسة (Odyssee)، هي بالفعل "أساطير" بالمعنى الأوسع. إنهما تتسمان بالخلط بين الإنساني و الذي يفوق الإنساني. أبطال الإلياذة لديهم كآسلاف، أي آباء وأمهات، إله واحد أو أكثر، وفي الوقت نفسه، يعتبرون كآسلاف أسر نبيلة تاريخية. إن أخيل (Achille) هو ابن ثيتيس (Thétis)، إلهة البحر، ومصيره محدد عن طريق الإحياءات موجودة منذ الأزل. هيلين (Hélène)، رهان حرب طروادة، هي بنت زيوس (Zeus)، وإن إرادة أفروديت (Aphrodite)، إلهة الحب، هي التي دفعتها إلى هجران زوجها وبناتها حينما أتى الطروادي باريس (Pâris) للبحث عنها في إسبرطة. في كلا المعسكرين، تحارب آلهة و إلهات: أبولون ()، حامي باريس، المهان من جهة أخرى في شخص أحد كهنته، الذي خطفت ابنته كريزيس () من طرف الأخيين، ينشر الطاعون في جيشهم. بوسيدون (Poséidon)، أثينا (Athéna)، آريس (Arès) شاركوا في القتال. وبطولات أخيل تشهد، ولا شك، على قيمة شخصية البطل، ولكن أيضاً على الحماية الإلهية التي لم تتخلى عنه في أي لحظة.

-2- الأسطورة و الفلسفة: إن موقف الفلاسفة من الأسطورة يتأرجح بين طرفين: **الرفض أو الافتتان**. أ- التهمة الرئيسية التي يوجهها الفلاسفة ضد السرد الأسطوري هو أن هذا الأخير يزعم بلوغ المعنى والحقيقة. في الواقع، فإن الأسطورة تحكي قصصاً، لذلك فإنها تستخدم لغة غير مباشرة، لغة رمزية، وبالتالي كيف يمكن أن تدعي السعي وراء الحقيقة العزيزة جداً على الفلسفة؟ إذا عدنا إلى زمن اليونان القديمة (أي، حوالي القرن السادس والسابع قبل الميلاد) نجد أن كلمتي "لوغوس" و "ميثوس" كانتا تشيران معاً إلى "حكاية مقدسة"، و لم يكن هناك أي تمييز بينهما. لقد كان أفلاطون هو الذي، مرة أخرى، سوف يضع من جديد كل شيء محل شك من خلال إقامة تعارض بين الخطاب الأسطوري (الذي أصبح يعتبر كذبة) والخطاب النظري للوغوس، الذي من المفترض أن يعبر عن الحقيقة. * بالنسبة للفترة الكلاسيكية (أي منذ

القرن الخامس قبل الميلاد. م)، الأسطورة ليست سوى "وهما وخرافة" (chimère). لقد اعتبرت الفلسفة، منذ أرسطو إلى هيجل، في رغبتها في العقلانية المطلقة، الأسطورة كتعبير عن فشل الفكر. لكن من خلال النظر عن قرب، يمكننا أن نرى أنه حتى الأساطير اليونانية كانت تعمل على انتصار العقل، وهكذا نجد أن أوديب (Oedipe)، بطل المعرفة، واللوغوس، بانتصاره على سفانكس (Sphinx) من خلال الإجابة على اللغز بلغة واضحة، سيكريس انتصار العقلاني على الكلمة الملغزة، الغامضة والمقدسة للوحش. ب- إن الانتقادات الموجهة من طرف أفلاطون كانت أكثر قسوة: الأسطورة ليست سوى وهما مفسدا للتفكير الخارج عن سيطرة العقل. لكن مع ذلك، ألا تجد الفلسفة الأفلاطونية مصدرها في الأورفية (l'orphisme)؟ ألم تبتكر أساطير مع أمثولاتها في كهف () أو المخنث (Androgyne)؟ لقد أشار أفلاطون إلى الأورفية في محاورات: الجمهورية، السفسطائي، المأدبة، القوانين، أقريطون، بروتاغوراس، فيدون، حيث قال: " هناك مذهب جرت به الألسنة في الخفاء، يرى أن الإنسان سجين، وليس له الحق في أن يفتح باب سجنه ليفر هاربا ". ويقول كذلك في المحاورة نفسها: " وإنني لأتصور أن أولئك الذين أنشؤوا الأسرار لم يكونوا مجرد عابثين ". أما أتباع أفلاطون، الأفلاطونيون الجدد، فنظروا إلى الأسطورة باعتبارها نمطا لمعرفة غير مباشرة، و بررت بوصفها وسيلة للوصول إلى الأفكار (المثل) و الحقيقي. إن الاسطورة إذن معترف بها من خلال قيمة التمثل الذي تقود إليه، هذه القوة للخيال القادرة على القول و الترميز. هكذا نجد أن كانط قال أن الأسطورة الأساسية هي " لا مشروط الأصول "، و هيجل اعتبرها "تجلي المطلق". لأنه في نهاية المطاف، الأسطورة، الشفهية، بطريقتها في قول المنطق: تتعامل بواسطة التمييزات و التعارضات. الخطاب العقلاني يصورن أكثر. ليفي سترأوس لا يتردد في التأكيد أنه بفضل التفكير الأسطوري الإغريقي يسير نحو التجريد الذي استطاع تم انبثاق التفكير الفلسفي.

3- نماذج بعض الأساطير الإغريقية: إن الميثولوجيا اليونانية ثرية بالأساطير، حيث أن هناك عددا هائلا منها لا يمكننا في هذه المحاضرة الإشارة إليها كلها لذلك سنكتفي بعرض بعض النماذج فقط. من بين تلك الأساطير نجد أسطورة ميديا التي تعبر عن تحول المرأة من كائن رقيق وديع إلى آخر شديد القسوة والشراسة. هذه الأسطورة المعبرة جدا تحكي

قصة فتاة اسمها "ميديا" أحببت شخصا من أعداء وطنها وفي سبيل حبها له خانت وطنها، لقد باعت وطنها للأعداء وساعدت حبيبها على قتل أبيها وأخويها ثم هربت معه ليتزوجها وتقضي معه أوقات من المتعة واللذة وأنجبت منه طفلين صغيرين. ولكن مع الأيام بدا حب هذا الزوج يقل انه حتى كف من الاكتراث لها ولا يرمقها إلا بكره واحتقار وفي احد الأيام علمت ميديا بنية الغدر التي بيثها لها زوجها فقد قرر الزواج من أخرى. إن ميديا في نظره ما هي إلا حقيرة خانت أهلها ووطنها ولعنتها الآلهة إنها أحقر من أن تظل زوجته سوف يتزوج من غيرها ويأخذ الأطفال منها ويتركها هكذا ذليلة مثل كلاب الشوارع ولن يكثر لها احد، فجن جنون ميديا وقررت الانتقام من هذا الزوج الخائن وفي اليوم التالي وقفت أمام زوجها الذي كان يستعد للزواج من أخرى وذبحت أمامه طفليها الصغيرين لتري في عينيه دموع القهر والمرارة وليحرق الانتقام والحق قلبها الأسود القاسي. أما أسطورة **سيزيف (Sisyphé)** فتسرد لنا هذه الأسطورة حكاية سيزيف ذلك المحارب البارع والماهر الذي يتميز بالمكر والدهاء، وهو ابن ايولوس (Éole) اله الرياح، كانا ملك على سيلينا وقد ارتكب من الأفعال ما اغضب عليه آلهة الأوليمب لذا تعرض لأقسى وأعنف أنواع العقاب الصارم. فقد اجبره زيوس (Zeus) على أن يدحرج صخرة عملاقه إلى قمة جبل وما أن يصل إلى قمته حتى تنحدر منه الصخرة مره أخرى وتسقط إلى أسفل عند سفح الجبل فيعود مره أخرى لدحرجتها إلى قمة الجبل وما أن يصل إلى قمته حتى تنحدر مره أخرى لأسفل وهكذا يظل سيزيف في هذا العذاب الأبدي. يعتبر سيزيف البطل الأسطوري الذي يقوم بمهمة وهو يعلم أنها لن تنتهي ولا جدوى منها ويكافح كفاحا مريرا وهو يعلم انه سيكلل بالفشل. **الحكمة: إننا جميعا نعيش في هذه الحياة ونحارب فيها ونحن نعلم أن هذا كله زائل وانه بلا جدوى إننا جميعا سيزيف!!** كما تروي لنا أسطورة الأرجوس (**Argos**) ذو العيون المائة (يرى كل شيء) قصة هيرا وهي زوجة زيوس كبير الآلهة التي كانت تمتلك وحشا عزيز على قلبها هو الأرجوس ذو العيون المائة. إلا أن غيرة هيرا وحدتها على زيوس قد دفعها لارتكاب حماقات جعلت زيوس يغضب على هيرا وبالتالي أرسل من يقوم بقتل الأرجوس وحش هيرا العزيز، وقد حزنت هيرا على الأرجوس حزنا شديدا مما جعلها تعلن الحداد وعلى سبيل المواساة والحداد فقد نزلت عيون الأرجوس المئة

ورشقتها على ذيل طاووسها العزيز. وهكذا فسر الإغريق سبب وجود هذه العيون على ريش الطاووس على أنها عيون الارجوس. وتحكي لنا أسطورة برومتيوس النار المقدسة قصة برومتيوس هو أحد التيتان أي العمالقة وهو ابن يابتوس، وقد تميز بحبه الشديد للبشر وعطفه الشديد عليهم لذا قرر أن يهديهم أفضل اختراع عرفته البشرية، لقد قرر أن يهديهم النار والتي كانت حكرا على سادة الأوليمب حيث لم يكن يتمتع بها غيرهم وكانت سرا لا يعلمه أحد من البشر وكان أن سرق برومتيوس بعض من النار المقدسة التي لا تنطفئ ووضعها في معبد دلفي حيث تحافظ عليها العذارى ويجب على من يريد أن يأخذ قبس من النار أن يجلب وعائه إلى المعبد ليأخذ فيه بعضاً منها ولما علم زيوس بذلك استشاط غضباً وحن جنونه فقد سرق ابن يابتيوس شيئاً كان ملكاً للآلهة ليهديه هكذا للبشر وأمر بإحضاره أمامه مكبلاً بالأغلال فاحضروه مكبل بالجنازير والأغلال يرصف في قيوده وبعد مداولة قرر أن يعاقبه أقصى أنواع العقاب وذلك بتعليقه مكبلاً بقيود صلبها هيفاسيتوس مخصوص بين جبلين من جبال القوقاز وسلط عليه نسر عملاق هو الرخ راح يمزق بطنه ويلتهم كبده لتلتئم جروحه في المساء وينبت له كبـد جديد يأتي الرخ في الصباح يلتهمه وهكذا ظل برومتيوس يتعذب بهذا الرخ العملاق أحقابا خلف أحقاب بلا توقف إلى أن أتى هرقل فقتل الرخ وأنقذ برومتيوس.

المحاضرة الثالثة

المدرسة الطبيعية أو الكوسمولوجية

المقدمة: إن المفكرين المذكورين في هذا المحاضرة ليس لديهم نفس المكانة من نواح كثيرة. وهكذا، في حين أن أفلاطون لا يستشهد بأنكسيمندر أو أنكسيمينس ، كما لو أن الفلسفة "قبل سقراط" كانت موجودة بشكل أساسي فقط من خلال معارضة بارمينيدس وهيراقليطس، فإنه من ناحية أخرى يشير عدة مرات إلى طاليس، أحد "الحكماء السبعة"، الذي نظر إلى النجوم وسقط في قاع بئر. لا يزال طاليس قريباً من الأسطورة، على الرغم من أن فكره ساهم بلا شك في تشكيل شكل جديد من العقلانية. من ناحية أخرى، لدينا شظايا ومذاهب معينة إلى حد ما، من أنكسيمندر وأنكسيمينس، غامضة في بعض الأحيان، ولكنها مصممة. كان من الممكن أن يظهر الأول كمقدم للتعالي في الفلسفة (لقد طرح اللامحدود

كمبدأ أول)، بينما كان الثاني قد دافع عن الجوهر (بالحفاظ على أن كل شيء يصدر عن الهواء ويعود إليه). تظل الحقيقة أن هؤلاء الأيونيين كانوا مواطنين ومعاصرين جزئياً، وأنهم جميعاً شاركوا في حركة فكرية يمكن اعتبارها بعدهم بأجيال قليلة كأصل للفلسفة، لدرجة أن يمكننا الحديث بأثر رجعي عن "مدرسة ملطية".

-أولاً- مشكلة الطبيعة: يعتقد الكثير من الفلاسفة، وخاصة نيتشه أن البداية الفعلية للفلسفة اليونانية كانت من خلال البحث عن العلة الأولى للأشياء ومبدأها الأول، وذلك من خلال التساؤل عن أصل الأشياء الذي يوجد داخل الطبيعة. "ولما كان الإنسان يبدأ بالنظر نحو العالم الخارجي لا نحو الداخل إلى نفسه فإن هذه الحقيقة حددت أيضاً طابع الحقبة الأولى من الفلسفة اليونانية، فقد انشغلت فحسب بالطبيعة، بالعالم الخارجي و لم تنشغل بالإنسان إلا باعتباره جزءاً من الطبيعة"²⁴. إن " فكرة الطبيعة (Physis) كانت تعني عند الفلاسفة الطبيعيين الأوائل المادة الأولية التي نشأت عنها كل الموجودات"²⁵، ومن ثم اتجه كل فيلسوف إلى افتراض معين ينطلق منه ليفسر ويعلل جميع مظاهر الوجود المادي بأكمله (طاليس/الماء، أنكسيمانس/الهواء، هرقليطس/النار، دمقريطس/الذرة). واللافت للنظر هنا أن أغلب فلاسفة تلك الفترة قد استندوا في محاولة تفسيرهم لمظاهر الوجود المختلفة إلى عدة فروض أغلبها فروض مادية بحثه مما يجعلهم أقرب للعلماء منهم للفلاسفة ولذلك أطلق على المشتغلين بالفلسفة في هذه الفترة "بالطبيعيين الأوائل" لأنه كان جل اهتمامهم منصبا على البحث في أصل الكون ونشأته. يقول عبد الرحمن مرحبا: " ويلاحظ على هذه الفلسفات جميعها أنها كانت متجهة نحو العالم الخارجي، عالم الأرض والسماء و سعة الأفلاك. وأما العالم الداخلي، الذي هو مصدر الأخلاق و موطنها، و أما العقل الذي هو مصدر المعرفة ومستقرها، فقد كانت الفلسفة اليونانية آنذاك لا تزال بعيدة عنها، قاصرة عن النفاذ إليها واستيعابها. فإن البحث في الطبيعة أقرب منا لا من البحث في الذات وأيسر وصولاً، لأن كل ما يتطلبه إنما هو إلقاء شعاع الفكر على الأشياء و تقليبه فيها واستخلاص بعض النتائج منها"²⁶. تقول الدكتورة أميرة حلمي مطر: " لم يكن تأثر الفلسفة الطبيعية

²⁴ ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، ط. ٩، 1984، ص. 31.

²⁵ أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية: تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، طبعة جديدة، 1998، ص. 41.

²⁶ عبد الرحمن مرحبا، مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت/لبنان، ط. 3، 1988، ص. 88.

المبكرة عند اليونان بالمستوى العلمي والفني الذي وصلت إليه الصناعة في عصرهم بأقل من تأثرها بالعوامل الاجتماعية والفكرية الأخرى، فمعظم فلاسفة هذه الفترة كانوا علماء وكانت لهم مخترعات ومكتشفات علمية عظيمة الأهمية²⁷.

-ثانيا- الأيونيون و هرقليطس: مثلما يقال، إن السابقين المباشرين لفلاسفة ملطية الطبيعيين هم الشعراء-التيولوجيون، الذين كانت كتاباتهم نقاط التقاء مع تفكير الفلاسفة الأوائل. إن ثيوجيني (*Théogonie*) هزيود، على سبيل المثال، لا تقترح فقط أصلا للآلهة، بل للعالم أيضا. ومع ذلك، فإن ما يسمح باعتبار طاليس بمثابة الفيلسوف الأول ويميزه عن الشعراء-التيولوجيين هو أنه يتموقع على صعيد جديد: صعيد العقل وليس الأسطورة. هذا لا يعني أن هزيود، وبشكل أعم، الشعراء-التيولوجيون لا يستخدمون العقل، كما لا يعني أن العنصر الأسطوري عند طاليس أو الفلاسفة اللاحقين كان غائبا؛ بل إنه ببساطة، على الأقل في النظرة عنهم التي أوصلها لنا أرسطو، عند هؤلاء المظهر الغرائبي، الأسطوري، هو الغالب، بينما عند طاليس والأيونيين نجد أن العقل أو اللوغوس هو الذي يسود ويهيمن. والدليل هو أن الشعراء-التيولوجيين مع أن تناولهم للمسائل في أفق تأملي هو في جزئه المشابه، كوسمولوجي، فإنهم لا يسعون إلى فردنة المبدأ المطلق الأول للواقع، بل بالأحرى يهدفون إلى نقل رواية عن ولادة الكون. في المقابل، نجد أنه عند الأيونيين البحث عن المبدأ (*arjé*) (مبدأ الأشياء) هو المسألة المركزية لتأملاتهم و ما يدخلهم إلى مجال الفلسفة. * ينتمي للمدرسة الملطية الأيونونية فلاسفة ثلاثة هم طاليس، أناكسيماندر وأنكسمنس، وقد تتلمذ اللاحق منهم على سابقه واهتموا جميعا بالبحث في طبيعة الكون أي بالكوسمولوجيا. ومن بين الخصائص المشتركة بينهم: الاهتمام بالبحث في الطبيعة؛ وعنايتهم بالعلوم (الرياضة والهندسة والفلك)، وكانت لهم فضلا عن ذلك اكتشافات ومخترعات أفادت فنون عصرهم، إضافة إلى انتمائهم إلى اتجاه واحد في الفلسفة هو الاتجاه المادي، باعتبار أنهم جميعا تصوروا أن الحقيقة العلمية والفلسفية للوجود لا بد أن تكون مادة، فهذه الأخيرة هي أصل الوجود ومبدأ نشأته وحركته. وكما سنرى، كل واحد منهم سيقدم حولا مختلفة لمشكلة المبدأ الأول، ولكن في كل الحالات فإنهم يعتبرون أن هذا المبدأ يجب أن يكون واحدا

²⁷ أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، طبعة جديدة، 1998، ص.42.

وفريدا. هذا الظرف بالإضافة إلى أصلهم الأيوني، يسمح بتقريب دراستهم لدراسة هيراقليطس الذي كان تفكيره، لأسباب أخرى، مختلفا تماما عن تفكير الإيونيين الأوائل.

1- طاليس (546-624/Thalès ق.م): ولد طاليس في ملطية بتاريخ لا يمكننا أن نعرفه سوى بصورة تقريبية. كل شيء يحمل إلى الاعتقاد بأنه طور نشاطه العلمي والفلسفي في بداية القرن 6 ق.م. لقد اعتبر منذ القدم كأول فيلسوف و، بشكل معين، كنموذج (prototype) الإنسان الحكيم. لدينا العديد من الشهادات عن أعماله، التي أعطته دورا هاما في حياة شعبه، والتي تقدمه لنا باعتباره رياضيا، و عالم فلك ورجل سياسة بارز. ويقول برتراند رسل وهو في صدد حديثه عن طاليس أول الفلاسفة الأغريق " ومع ذلك فأمامنا مبرر قوي يحملنا على احترام طاليس، ولو أنه احترام موجه إليه باعتباره رجلا من رجال العلم أكثر منه فيلسوفا بالمعنى الحديث لهذه الكلمة "28. * لقد كانت المصادر أكثر حذرا حول فكره الفلسفي، ويرجع ذلك جزئيا إلى حقيقة أنه لم يكتب شيئا، والتي عرفناها أساسا من خلال ما نقيه إلينا أرسطو. حسب هذا الأخير، فكر طاليس يمكن اختزاله إلى مذهبين أساسيين: الماء كمبدأ أول والروح كمبدأ محرك.

أ- الماء كمبدأ أول: النقطة الأساسية لكوسمولوجيا طاليس هو اعتبار الماء كمبدأ أسمى. يعرض أرسطو فكر الملطي فيقول في كتاب ما بعد الطبيعة: " لقد فكر الفلاسفة الأول أكثر في المبادئ ذات الطبيعة (المادية) واعتقدوا أنها هي وحدها مبادئ الأشياء جميعا، فهي تلك التي تتكون منها الأشياء كلها، والتي منها ظهرت إلى الوجود لأول مرة، والتي تنحل إليها في النهاية. (فالموجود يظل كما هو و التغيرات تتم في مظاهره) و ما يقولونه هو عنصر الأشياء و مبادئها. و من ثم فهم يعتقدون أن لاشيء يمكن أن يظهر أو يختفي، ما دام هذا النوع من الكائنات موجودا باستمرار، على نحو ما تقول إن سقراط لا يظهر تماما عندما يصبح جميلا أو موسيقيا، و لا يتوقف عن الوجود تماما عندما تقول إن سقراط لم يفقد هذه الخصائص (الجمال أو الموسيقى)، لأن الحامل ألا وهو سقراط نفسه يظل كما هو. و على ذلك فهم لا يقولون لا شيء آخر يظهر في الوجود أو يكف عن الوجود، لأنه لا بد أن يكون

²⁸ برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، المجلد الأول، ترجمة زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة/مصر، ط. 1، 2010، ص 63.

هناك كيان ماء، إما واحداً أو أكثر من واحد (متعدد)، تظهر منه جميع الأشياء الأخرى ويظل كما هو. ومع ذلك فهم لا يتفقون جميعاً على عدد هذه المبادئ أو طبيعتها فطاليس مؤسس هذه المدرسة الفلسفية يقول إن هذا المبدأ هو الماء. (وهو لهذا السبب يعلن أن الأرض تطفو فوق سطح الماء)... (إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، مصر، ط1، 2005، ص.263). * من هذه الشهادة الأولى يمكننا أن نستنتج ليس فقط أن الماء هو المبدأ الأول بالنسبة لطاليس، ولكن أيضاً على نطاق و وظيفة هذا المبدأ. من جهة، إنه منه كل شيء يبدأ - الأصل الأول لجيله - وإليه كل فساده (العدم). في النظرة الأرسطوطاليسية، هذا المبدأ هو المؤسس المادي الأصلي لكل الأشياء، والذي يبقى فيها كمقوم و كل ما يصبح بالفساد. لكن لماذا رأى طاليس في الماء المبدأ الأسمى؟ يعطينا أرسطو أيضاً مؤشرات دقيقة: "وربما جاءت الفكرة من رؤيته غذاء أن الأشياء جميعاً لا بد أن تكون رطبة، و أن الحرارة نفسها تنشأ من الرطوبة، وتبقى حية بواسطتها (أو أن ما صدرت عنه هو مبدأ كل شيء). وقد استمد فكرته من هذه الواقعة، و أن بذور كل شيء ذات طبيعة رطبة، و أن الماء هو أصل طبيعة الأشياء الرطبة." (ن.م.ص) * لقد انطلق من الفرضية التالية، وهي أن الأشياء على رغم من تغيرها وتنوعها، واختلاف بعضها عن بعض، تشكل عالماً معقولاً، وترتد إلى مبدأ واحد هو الماء. ومن الحجج التي يؤكد بها صدق هذه الفرضية، أن الحياة تدور مع الماء، وجوداً وعدماً، فتكون الحياة حيث يكون الماء، وتنعدم حيث ينعدم؛ وأن الماء يستحيل إلى صور متنوعة، فيصعد في الفضاء بخاراً، ثم يعود، فيهبط فوق الأرض مطراً، ثم يصيبه برد الشتاء، فيكون ثلجاً؛ وهكذا، يكون غازاً حيناً، وسائل حيناً، وصلباً حيناً. وكل ما يقع في الوجود، لا يخرج عن إحدى هذه الصور الثلاث؛ فلا فرق بين هذا الإنسان، وتلك الدابة وذلك الجبل إلا الاختلاف في كمية الماء الذي يتركب منها، هذا الشيء أو ذاك؛ هذه حقيقة مطلقة، يؤمن بها طاليس، إلى درجة أنه خيل إليه، أن الأرض قرص متجمّد، يسبح فوق لجاج مائية ليس لأبعادها نهاية. * قد تبدو لنا هذه الأسباب سذاجة، فهي ناتجة عن ملاحظات أساسية بشكل مفرط، ولكن أسباب ترمي إلى شرح التنوع المدهش، و إلى إعادة هذا التنوع والتعدد المتغير للعالم المادي إلى وحدة المبدأ، و إلى تجاوز مرحلة الحكايات الخيالية (الأساطير). * ومع ذلك،

فمن الممكن أن التفسير العقلاني الذي قدمه طاليس قد وجه من قبل الأساطير السابقة. هذا هو الشك وحتى الاتهام الذي تركه أرسطو يظهر والذي أدى بالعديد من المؤرخين إلى تشبيهه مبدأ طاليس ببعض النظريات الأسطورية. يقول أرسطو في هذا الصدد: " واعتقد البعض أن القدماء الذين عاشوا قبل الجيل الحالي بزمان طويل، و الذين كانوا أول من ذكر روايات عن الآلهة، كانت لديهم وجهة نظر مشابهة عن الطبيعة، لأنهم جعلوا من الأوقيانوس (Océan) ومن تيطيس (Thétis) والدين للخلق. ووصفوا قسم الآلهة بأنه كان يتم بجوار الماء الذي أسموه هم أنفسهم "ستايكس" (Styx). وربما كان هناك شك فيما إذا كان هذا الرأي عن الطبيعة رأيا بدائيا وقديما. غير أنه يقال إن طاليس، على أية حال، أعلن ذلك بنفسه عن المبدأ الأول". (ن.م.ص). * حتى و إن كان هذا الأمر لا يمكن البرهنة عليه، من المحتمل أنه كانت هناك امقدمات أسطورية في فكر طاليس؛ ولكن ما ينبغي الإشارة إليه والتأكيد عليه مرة أخرى هو الطبيعة العقلانية لأطروحته، التي تميزها بوضوح عن أية قصية أسطورية يمكن أن تتشابه معها. يقول الدكتور عبد الرحمان مرحبا: " وليس المهم في ذلك رده الأشياء إلى الماء، إنما المهم أنه: كان أول من عبر عن أفكاره بعبارات منطقية معقولة، فهو لم يفسر الكون بالخرافات و الحكايات و الأساطير، و لا بالقوى الخفية و قوى الآلهة، بل على أساس عقلي علمي معلل، يرتبط فيه المعلول بالعلة ارتباطا وثيقا". (لقد) كان أول من أرجع الكون كله إلى عنصر واحد. (...) إن طاليس لا يهتم تنوع الكائنات و الأشياء، إنما يعنيه الغوص على الحقيقة البسيطة الواحدة التي تضرب في الأعماق، دون النظر إلى ما يبدو للحس الظاهر"²⁹.

ب- الروح كمبدأ محرك: المقترحات المتبقية لطاليس التي نقلها لنا أرسطو تتعلق بمذهبه عن الروح، التي تقدم مؤشرات هامة حول لاهوته (ثيولوجيته): " ويبدو أيضا أن طاليس، حسب ما ذكر و نقل عليه، كان يعتقد أن الروح هي قوة محركة، إن كان صحيحا أنه ادعى أن حجر المغناطيس له روح لأنه يجذب الحديد. (Aristote, L'âme, 1,2)؛ ثم يشير أرسطو فيما بعد: " وهناك أيضا بعض الفلاسفة الذين يرون أن النفس مخلوطة مع الكون بأسره، هذا ما كان سببا ربما في أن طاليس اعتقد أن كل شيء كان مليئا بالآلهة"

²⁹ محمد عبد الرحمن مرحبا، مع الفلسفة اليونانية، منشورات عويدات، بيروت/لبنان، ط.3، 1988، ص.86-87.

(Aristote, L'âme, 1, 5). في هذا الاتجاه تقول أميرة حلمي مطر: "ومما ينسب لطاليس أيضا قوله أن كل الأشياء مليئة بالآلهة أو بالنفوس و أن المغناطيس حي لأن فيه قوة تحريك الحديد"³⁰. أن تكون الروح (النفس) هي مبدأ الحياة والحركة يبدو الخلاصة المنطقية المستنتجة من قبل أرسطو لبيان طاليس حول المغناطيس. ولكن وفقا للبيان اللاحق، فإنه لن يكون الحجر المغناطيسي فقط هو ما يمتلك روحا بل كل الكون الذي سيكون مشبعا بالحياة، على الرغم من أن العديد من أجزائه تبدو جامدة، "فقد نسب إليه أرسطو أيضا القول بأن الآلهة تحل في جميع الأشياء (كتاب النفس، 411، أ، 2) و إن كان قد علل ذلك بقوله إن طاليس ربما كان يعني بذلك أن النفس منتشرة في جميع أرجاء الكون، وأن جميع الأشياء تتصف بالحياة"³¹. لا شيء آخر قيل عن طبيعة الروح الحيوية المنشطة والإلهية، ولكن من الممكن أن طاليس قد ربطها بطبيعة المبدأ الأول: الماء. في هذه الحالة سيكون فكر طاليس أكثر وضوحا: كل الأشياء تصدر من الماء والماء يبقى في كل الأشياء، باعتباره الأساس؛ إذن كل الأشياء ينبغي أن تكون إلهية و متحركة.

2- أنكسيمندر (546-610/Anaximandre ق.م): ولد أنكسيمندر في ملطية نحو سنة 611 ق.م، وكان أصغر بقليل من طاليس و، حسب الأدلة المتاحة، كان تلميذه. مؤلف كتاب الذي يحمل عنوان **في الطبيعة**، مارس مثل أستاذه أنشطة أخرى زيادة على البحث الكوسمولوجي. ومع ذلك، كان مختلفا بشكل واضح عن طاليس في هذا المجال، مشيرا الى ان **الأبيرون (Apeiron) هو المبدأ الأول**، أي أنه هو الذي ليس نهائيا، وغير محدود". من بين الذين قالوا أن [المبدأ الأول] هو واحد، متحرك ولانهائي، أنكسمندر، ابن براكسياد (Praxiade)، ملطي، تلميذ وخليفة طليس، قال مبدأ و عنصر الأشياء الموجودة كان الأبيرون، الذي كان أول من أدخل هذا الاسم للمبدأ المادي" (Simplice, In Aristotelis Physica, 24, 13). "إن اللانهائي أو اللامحدود (الأبيرون) هو المادة الأولى للأشياء أو المبدأ الأول للأشياء الكائنة. وأيضا فإن الأصل الذي يستمد منه الموجودات وجودها هو الذي تعود إليه عند فنائها طبقا للضرورة وذلك لأن بعضها يخضع

³⁰ أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، طبعة جديدة، 1998، ص. 51.
³¹ ماجد فخري، تاريخ الفلسفة اليونانية - من طاليس 585 ق. م. إلى أفلوطين 270 م و برقلس 470 م -، دار العلم للملايين، بيروت/لبنان، ط. 1، 1991، ص. 17.

لحكم العدل ويصلح بعضها الآخر. (...) وقد وصف انكسيمندر هذا اللانهائي بقوله: " هذا اللانهائي دائم أزلي" و " اللانهائي خالد لا يفنى " ³².

3- أنكسيمنس (524-588/Anaximenes ق.م): يعتبر أنكسيمنس آخر ممثل لهذه المدرسة، وقد " حاول أن يجمع بين الفكرتين السابقتين، فرأى أن المبدأ لا بد أن يكون غير محدد من حيث الكم، و لكنه محدد أو متعين من حيث الكيف، إنه "الهواء" منه نشأت الموجودات التي كانت وسوف تكون منه أيضاً، نشأت الآلهة وكل ما هو إلهي، وتفرعت عنه باقي الأشياء" ³³. إن هذا الشّتات والتنوع والاختلاف في الأشياء، ليس سوى قرصٍ مسطوح يسبح في الهواء. ومن الأدلة التي يستند إليها، أن هذا المبدأ دائم الحركة، لأن الحركة أصل التغير. و التغير الذي يطرأ على الهواء خاضع لظاهرتين متقابلتين هما **التخلخل و التكاثف** ³⁴، فالهواء يشيع في كل أنحاء الوجود؛ فإذا تكاثف حيناً، كان شيئاً، وإن هو تخلخل حيناً، كان شيئاً آخر. فإذا هو أمعن في تخلخله مثلاً، انقلب ناراً، حتى إذا ارتفعت، كوّنّت الشمس، والأقمار. وإذا هو أمعن في التكاثف مثلاً، انقلب سحاباً، ثم أنزل السحاب ماء، ثم تجمد الماء، فإذا هو تربة وصخور.

4- هرقليطس (480-540/Héraclite ق.م): هو فيلسوف يوناني في عصر ما قبل سقراط، كتب بأسلوب غامض، والسبب في ذلك أنه كان يطيب له المفارقات والأقوال الشاذة، وكان يعبر عنها بلغة مجازية رمزية، ومن هنا لقبه تيمون الفليوسي بلقب "صاحب الألغاز". ويقول عنه أفلوطين: "كان يتكلم بالتشبيهات، ولا يعنى بإيضاح مقصوده"، يغلب طابع الحزن على كتاباته، ولذا، عُرف بالفيلسوف الباكي. كان هرقليطس أول من قال بـ **اللوغوس** والذي استخدمه بمعاني عدة (الكلمة/اللغة، الفكر/الحقيقة). وإلى جانب القول باللوغوس، أكد على المبادئ التالية: * **الانسجام هو دائماً نتاج المتقابلات، ولهذا فإن الحقيقة الأساسية في العالم الطبيعي هي الكفاح.** * **و كل شيء في حركة مستمرة وتغير.** * **وأن العالم نار حية دائمة البقاء.** إن المبدأ الأول له ثلاثة أوجه هي: - كل شيء مؤلف من

³² مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ص. 110.

³³ إمام عبد الفتاح إمام، مدخل إلى الميتافيزيقا، نهضة مصر للطباعة والنشر، الجيزة/مصر، ط. 1، 2005، ص. 92.

³⁴ ماجد فخري، تاريخ الفلسفة اليونانية - من طاليس 585 ق. م. إلى أفلوطين 270 م و برقلس 470 م -، دار العلم للملايين، بيروت/لبنان، ط. 1، 1991، ص. 20.

المتقابلات، ولهذا فإنه خاضع للتوتر الداخلي؛ و المتقابلات في حالة هوية بعضها مع بعض، أي أن المتقابلات واحدة؛ و الحرب، هي القوة المهيمنة والخلقة، وهي الحالة السليمة للأمور. أما المبدأ الثاني فيعبر عنه بقوله: "كل شيء في سيلان دائم: والقول المشهور الذي يعبر هرقليطس عن هذا المبدأ " لا تستطيع أن تنزل في نفس النهر مرتين" ويضيف إليه فلوطرخس، التفسير التالي: " لأن مياهاً جديدة تتدفق فيه". أما المبدأ الثالث فيشرحه بالقول: "إن نظام العالم واحد للجميع، لم يصنعه أحد الآلهة ولا الناس، لكنه هو دائماً وسيكون كذلك أبداً: ناراً حية دائمة البقاء، أشعلت بمقاييس وأطفئت بمقاييس". ويشرح اللائسي هذا القول بأنه يعني أن " الكون ولد من نار وسينحل من جديد إلى نار، في عصور متوالية على التبادل، وهكذا أبداً". لقد ذهب هيرقليطس إلى أن " العالم kosmos وهو واحد للجميع، لم يخلقه إله أو بشر، ولكنه كان منذ الأبد، وسوف يوجد إلى الأزل، إنه النار، التي تشتعل بحساب Metra (بمقياس - بنسبة) وتخبو بحساب"³⁵. يرى هرقليطس أن الأشياء تتغير باستمرار، ومصدر ذلك، النار؛ وهذا، لأن طبيعة النار، أن تحرق، والاحتراق تغير. فكل الأشياء في العالم، ظواهر لا تكف عن الاحتراق؛ وبهذه العملية، يتحول الشيء باستمرار إلى الآخر؛ وليست هذه الحياة التي تدب في الأحياء، وهذا النشاط العقلي الذي يُميّز الإنسان، إلا قبسا من تلك النار؛ فكلما كثرت النار في جسم، ازدادت حيويته، واشتد نشاطه؛ وكلما أظلم الشيء - أي قل ما فيه من نار - كان أقرب إلى الموت واللاوجود. و بتعبير آخر، كل شيء يخرج من النار، وإلى النار يعود؛ لأن الوجود في الحقيقة، عملية مستمرة للصيرورة؛ وعملية التحول هاته، تأخذ اتجاهين: طريقا صاعدا، وآخر هابطا: - فالصاعد يبدأ من التراب ثم الرطوبة ثم النار؛ - والهابط، من النار إلى الرطوبة، فالتراب. ويرى أن التوازن متساو تماما، و هو تحول حقيقي بين العناصر: "إن النار تحيي موت التراب، والهواء يحيي موت النار، والماء يحيي موت الهواء، والتراب يحيي موت الماء". وهكذا، تتحول كل الأشياء للنار. يقول هرقليطس: "كل الأشياء تتتابع، ولا شيء يثبت. فأنت لا تستطيع، أن تنزل مرتين في النهر نفسه، لأن مياهها جديدة، تجري حولك متتابعة"، وأما التعارض والشقاق، فليس في رأيه،

³⁵ أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة/مصر، ط1، 1954، ص 104 - 105.

شرا بل هما خير. والناس لا يعرفون كيف أن التنوع، يتفق مع نفسه" وذلك، لأنه "من الشقاق والتعارض تتولد كل الأشياء". وفي كلمة، هذه النار العالمية، هي عملية التغير، وهي قانون الكون، وهي الإله نفسه، فهو "نهار وليل، شتاء وصيف، حرب وسلام...". هذا عن أصل الأشياء في مستواها المادي.

ثالثاً: الطبيعيون المتأخرون: لقد حاول ثلاثة فلاسفة متعاصرين العودة إلى دراسة مسألة الطبيعة و هم متأثرون بالإيلية والفيثاغورية، يشتركون في القول بأن أصل الأشياء كثرة حقيقية وأنه لا يوجد تحول من مادة من مادة إلى أخرى و إنما الأشياء تأليفات مختلفة من أصول ثابتة، ويختلفون حول هذه الأصول وطرق اتصالها وانفصالها. هؤلاء الفلاسفة هم أنكساغوراس و أمبدوقليس و ديمقريطس.

1- أنكساغوراس (428-500/Anaxagoras ق.م): ولد أنكساغوراس في مدينة أكلازوميا (آسيا الصغرى) حوالي سنة 500 قبل الميلاد وانتقل إلى أثينا، حيث اتهم بالزندقة وحكم عليه بالموت مما اضطره إلى مغادرة أثينا . وهو "أول من فسّر علمياً ظاهرة الكسوف والخسوف"³⁶. عاش في حماية بريكيليس. لقد تأثر أنكساغوراس بكل من بارمينيدس وهرقليطس وأنبادوقليدس إضافة إلى حكماء الطبيعة من قبيل طاليس وأنكسمندرس وأنكسمانس. لقد تأثر أنكساغوراس في تفسيره الطبيعي بالروح الأيونية القائلة بالعناصر الأربعة، غير أن هذا لم يمنعه من الأخذ بنظرية بارمينيدس عن الوجود الذي لا يكون و لا يفسد، وهو ما تكلم عنه بصراحة حين قال: "ويخطئ الهلينيون في قولهم: إن الأشياء تظهر إلى الوجود ثم تختفي، فلا شيء يظهر إلى الوجود أو يختفي عن الوجود، بل هناك انفصال أو امتزاج لما هو موجود"³⁷. وقد انطلق أنكساغوراس من فكرة تحليل العقل والجزئيات للوصول إلى المبادئ في سياق رفضه لفكرة التغير المطلق. ويعد كتاب أنكساغوراس "في الطبيعة" من أهم ما تركه هذا الفيلسوف اليوناني. وقد أشار أفلاطون لهذا الكتاب في محاوره الدفاع. إذ فسر فيه الاختلاف والذرات من خلال علة غير مادية وهذه العلة هي ما سماها أنكساغوراس **العقل (Nous)**. فهو الذي ينظم الوجود ويخرج

³⁶ جورج طرابيشي، 2006 ، ص. 106.

³⁷ تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ص. 256.

الذرات من حالة الخلط والاختلاط إلى حالة الوجود الحقيقي. لقد سعى أنكساغوراس سعياً قوياً نحو البحث عن العقل ووظيفته. "لقد وصف أنكساغوراس العقل بأنه "أدق الأشياء و أنقاها" كما قال أيضاً أنه "غير مختلط"³⁸. يعتقد أنكساغوراس أن وراء الأشياء، قوة عاقلة مجردة ذكية وبصيرة، تدبر شؤونها، فتولد الحركة في الأشياء، إقبالا وإدبارا حتى تتكون منها العوالم. وأساس هذا الاعتقاد، انبهاره من نظام الكون وجماله وتناسقه، وكذا استنتاجه بأنه يستحيل على قوة عمياء، أن تُخرج هذا العالم في هذه الدقة والتناغم والجمال. إلا أن العقل لم يخلق المادة من عدم، بل هما عنصران قديمان أزليان، نشأ كل منهما بذاته، ثم طرأ العقل على المادة، فبعث فيها الحركة والنظام.

2- إمبدوقليس (Empedocles) حوالي 490-435 ق.م): يرى إمبدوقليس أن نشأة الأشياء ترتد إلى مواد أربعة: التراب والماء والهواء والنار؛ وسمى هذه المواد بـ "الجذور"، والتي أسماها أرسطو فيما بعد بالعناصر، فـ"في الحقيقة نجد أن كلمة "العناصر" هي كلمة اخترعت في عصر متأخر و أمبدوكليس إنما يتحدث عن العناصر على أنها "جذور الكل"³⁹. هذه المواد أو العناصر لا تكف عن الاتصال والانفصال والاختلاف فيما بينها؛ وذلك، تبعا لتفاوت نسبة المزج فيما بينها. ومحرك هاته العناصر، قوتان متضادتان هما الحب والنفور أو النزاع التي تعمل على الجمع أو التفريق بينها. لقد "قال إن هذه الأربعة مبادئ على السواء، ليس بينها أول و لا ثان، لا تتكون و لا تفسد فلا يخرج بعضها من بعض، ولا يعود بعضها إلى بعض، لكل منها كيفية خاصة: الحار للنار، والبارد للهواء، والرطب للماء، واليابس للتراب، فلا تحول بين الكيفيات، ولكن الأشياء وكيفياتها تحدث بانضمام هذه العناصر وانفصالها بمقادير مختلفة على نحو ما يخرج المصور بمزج الألوان صورا شبيهة بالأشياء الحقيقية، وإنما تجتمع العناصر وتفرق بفعل قوتين كبيرتين يسميهما المحبة والكرهية"⁴⁰.

3- ديمقريطس (Démocrite) حوالي 460-370 ق.م): من بين أشهر المدارس الفلسفية اليونانية نجد "المدرسة الذرية"، وقد دعا أتباعها، وخاصة لوقيبوس، الذي يعد

³⁸ ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، ط. ٩، 1984، ص. 90.

³⁹ ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، ط. ٩، 1984، ص. 78.

⁴⁰ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص. 46.

أول من قال بالذرة، وديمقريطس، إلى نظرية الجزيئات، فإذا كانت المادة يمكن أن تنقسم فإننا يجب أن نصل إلى وحدات لا تنقسم هي ما يسمونه "الذرات" التي تعتبر حسبهم المكونات النهائية للمادة. لقد اعتقد ديمقريطس بأن أصل الأشياء، هو عنصر واحد متجانس، يدعونه الجواهر الفرد أو الذرة. ودليلهم في ذلك، أنه لو فككنا الأشياء إلى جزئياتها، لانتهينا إلى وحدات لا تقبل التقسيم، هي لا نهائية العدد، وتبلغ من الدقة، حدا يتعذر معه إدراكها بالحواس، وهي خالية من الصفات. أما الصفات التي ندركها في الأشياء، فهي ناشئة عن كيفية ائتلاف الذرات في تكوينها للأجسام. واعتقد ديمقريطس بأن الأرض مدورة، وإن الكون ليس أكثر من ذرات دقيقة في حالة فوضى، ومن ثم أخذت تتصادم بعضها ببعض، فتلتقي وتتجمع سوية في صورة كبيرة. وهذا التصور الميكانيكي للذرات يشمل الأرض وكل شيء. وأمن ديمقريطس بوجود عوالم عديدة، منها في حالة نمو، ومنها ما اندثر وتلاشى، ومنها دون شمس أو قمر، وبعضها له شمس وأقمار عديدة، وإن كل العوالم لها بداية ونهاية. كما ويرى إن العوالم ممكن أن تتعرض للدمار، وذلك من خلال إصطدام بعضها ببعض الآخر. هذا ما يبين عبقرية هذا الفيلسوف وإبداعه وأصالته، وهو ما جعل فرانسيس بيكون يمتدح ديمقريطس في الكثير من الأحيان لافتراضه هذا الفرض العلمي، رغم أن تصور العلم الحديث عن الذرة يختلف عن فكرة ديمقريطس حولها.

المحاضرة الرابعة

المدرسة الفيثاغورية

1- الفيثاغورية: الفيثاغوريون هم جماعة من الفلاسفة الذين تزعمهم فيثاغورس وكانوا أقرب ما يكون إلى جماعة دينية تجمع أفرادها حولها، نجهل أسماء معظم أفراد هذه الجماعة نظراً للسرية التي أحاطوا أنفسهم بها، إلا أننا نعلم الكثير من الحقائق المختلطة بالأساطير والخرافات عن فيثاغورس مؤسس هذه الجماعة. وصفها البدوي بأنها أكثر من فلسفة "بل كانت إلى جانب هذا، أي الفلسفة، مدرسة دينية أخلاقية على نظام الطرق الفلسفية"⁴¹. وقد تم إحياء الفيثاغورية في زمن لاحق فعرفت بالفيثاغورية المحدثه، وكان لهذه الأفكار تأثير

⁴¹ عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2.

كبير على الفكر الارسطي والافلاطوني ومن خلالها على الفلسفة الغربية. ودراسة الفيثاغورية تظهر ان له طروحات فلسفية حول العقل والدين والروحانيات بالإضافة للرياضيات. * لقد كان للمدرسة الفيثاغورية نظام من الأخوة، كأنها دير أو معبد، فجميع الطلبة يرتدون زياً واحداً هو الملابس البيضاء، ويعيشون معيشة واحدة هي حياة الزهد والتقشف والبساطة، ولا ينتعلون -في الأعم الأغلب - بل يمشون حفاة الأقدام على نحو ما كان يؤثر عن سقراط الذي كان متأثراً بتعاليم الفيثاغورية متأثراً شديداً على نحو ما يتضح في محاوره "فيدون" ولا يحفلون بالآلهة لأن من "واجب المرء أن يكون صادقاً بغير قسم"، كما كانوا يحاسبون أنفسهم في نهاية اليوم على ما فعلوه طوال النهار، فيسأل كل منهم نفسه عن الشر الذي ارتكبه، والخير الذي قدمه، والواجب الذي أهمل في أدائه. ورغم ذلك فقد كانت جماعة فيثاغورس تتميز بكونها ذات نشاط علمي، وعلى الأخص رياضي، وأنها مدّت نشاطها من الرياضيات إلى الفلسفة، حتى أنّ هناك نظريات رياضية تنسب إلى فيثاغورس، حتى أنه يمكن القول أنّ الرياضيات كانت أساس الفلسفة الفيثاغورية، هذه الفلسفة التي استمرت لثمانية قرون على الأقل منذ عهد فيثاغورس. * و من الأمور التي لا يجب أهملها فيما يتعلق بالمدرسة الفيثاغورية كونها أول مدرسة يونانية تسمح بانخراط المرأة في أنشطتها الفلسفية، فأخرجت للعالم نساء فلاسفة ذائعات، ابتداءً من ثيانو Theano زوجة فيثاغورس، وبناتها الثلاث: أريجنوت Arignote، مياليا Myia، ودامو Damo، اللاتي قمن برئاسة المدرسة الفيثاغورية بعد وفاة مؤسسها، حتى هيباثيا فيلسوفة الإسكندرية الشهيرة. * كما يجدر الإشارة إلى فكرة أساسية للفيثاغورية شاركت في جعل تأثيرها يستمر خلال كل عصور الحضارة اليونانية، وفي الحضارة المسيحية بل وكذلك في الحضارة الإسلامية، ألا وهي أنّ العلم إنما هو في النهاية أداة لتطهير النفس حينما تصل هذه إلى الحقيقة. وهكذا فالفيثاغورية مذهب علمي في الرياضيات ومذهب فلسفي ومذهب أخلاقي كذلك يقوم على نوع من التصوف العقلي. ومنّ القواعد الأخلاقية التي كانوا يملونها على أتباعهم :- احترام الآلهة و الخضوع لإرادتهم؛- البقاء في المركز الذي نحن فيه في الحياة و عدم تركه؛ - الولاء للأصدقاء و كل شيء مشترك بينهم؛- الاعتدال و البساطة في استخدام خيرات الدنيا. زيادة على ما تقدم ينبغي النظر إلى

الفيثاغورية باعتبارها جماعة سياسية أيضًا، إذ امتلكت ناصية الحكم في كروتونيا لعدة سنوات و في مدن غيرها، و كانوا يمثلون اتجاهًا مضادًا للديموقراطية، غير أن ثورة قامت ضدهم و أحرقوا المنزل الذي كانوا يجتمعون فيه، فأبادتهم عن آخرهم، إلا اثنين هربا من المدينة، وعن طريقهما بقي المذهب قائمًا حتى وقت متأخر من التاريخ، والواقع أنك لن تجد مدرسة فلسفية في العالم القديم انتشرت بالسرعة والقوة التي انتشرت بها **الفيثاغورية**، والتغيرات والتعديلات في النظريات الأصلية اندمجت في جسد المعتقدات **الفيثاغورية** نتيجة لأنها تتكيف مع روح **فيثاغورس** الحاضرة دوماً. لكن التطورات والتشعبات التي لحقت المدرسة في النهاية أدت إلى ضياع ذلك الإنسجام الذي كان يميز المدرسة في سلسلة من المنازعات والإنشقاقات داخل الجماعة، وأدت فلسفة العدد إلى نتائج مختلفة، حتى أفشى بعض الأعضاء أسرار الأستاذ وكونوا حركات خاصة بهم: فظهر ما نسميه **بالفيثاغورية** المتأخرة التي كان على رأسها الفيلسوف الفيثاغوري فيلولائوس، ثم ظهرت بعد ذلك مرة أخرى في مدينة الإسكندرية ... إلخ.

2- من هو فيثاغورس؟ يعتبر **فيثاغورس** من أشهر الشخصيات الفلسفية والعلمية والدينية عبر التاريخ، ونحن لا نعرف الكثير عنه لأنه كان أقرب إلى الأسطورة حتى أنه وضع في جنس متوسط بين البشر والآلهة، وقيل أنه يحضر في عدة أماكن في نفس الوقت، وأن له فخذًا من ذهب... إلخ. "لقد انحدرت إلينا ثلاث سير من العالم القديم لكنها كتبت بمئات السنين بعد وجود فيثاغورس، وهي مليئة بنغمة من الخيال المبالغ فيه وتمتلئ بقصص المعجزات والأعاجيب التي قام بها"⁴². ينسب إلى **فيثاغورس** أنه أول من استخدم كلمة " فيلوصوفيا" أي محبة الحكمة [1]، وينبغي أن نفهم الحكمة هنا بكل معانيها، حيث يختلط فيها النظر بالعمل، فليس الحكيم هو من يعرف أشياء كثيرة فقط، بل هو أيضًا من يسلك السلوك الحكيم. عموماً يمكننا القول أن **فيثاغورس** قد ولد في مدينة ساموس حوالي 572 ق.م، (وإن كانت هناك روايات تقول أنه ولد عام 580 ق.م أو عام 570 ق.م) وعلى أية حال فقد ازدهر شأنه حوالي 532 ق.م في عهد بوليقراطس طاغية ساموس. وقد هاجر إلى 'كروتونا' في 'اليونان الكبرى' حوالي عام 538 ق.م فرار من بوليقراطس في ملطيا، حيث أسس هناك

⁴² ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، ط. ٩، 1984، ص. 37.

جماعة ذات طابع ديني، هدفها تطهير النفس للوصول إلى الحياة السعيدة بعد الموت. و لهذه الجماعة شروطها الخاصة وقواعدها و محرماتها (مثل حظر أكل الفاصولياء وأنواع بعينها من اللحوم، عدم التكلم في الظلام... إلخ [2]) وهي في هذا تشبه كثيرًا التجمعات السرية الدينية المسماة بـ "الأوريفية" [3].* يقول ديوجين اللايريتي نقلًا عن أرسطوبس القورينائي في كتابه عن الأطباء: "إن فيثاغورس اكتسب اسمه لأنه "نطق بالحق" كشخص معصوم من الخطأ، كما تفعل عرافة دلفي المسماة *pythian*" وقال عنه ول ديورانت: "إن معنى كلمة فيثاغورس هو "الناطق الغيبي" بلسان مهبط الوحي في دلفي. وكان كثير من أتباعه يقولون عنه إنه هو أبولو نفسه"، كما تناقل عنه بعض المصادر المبكرة كونه ساحرًا يزعم أنه اختبر تجارب "سرية" أو صوفية، وأنه كان يتواجد في أماكن مختلفة في نفس الوقت، هذه بعض القصص والأساطير التي نسجت حول شخصية فيثاغورس. ويقول هيجل: "إن علاقات فيثاغورس بالطائفة الكهنوتية المصرية كان لها عليه أعظم تأثير، لا بالحكمة النظرية العميقة التي يقال إنه جناها من هناك، بل بالفكرة التي كونها نفسه هناك عن تطبيق الضمير، عن التحقق الفعلي للوجود الأخلاقي للإنسان".

3- فلسفتها الطبيعية: "عندما حاول الفيثاغوريون تفسير طبيعة الكون رأوا أن التفسير المادي الذي قال به السابقون عليهم يثير صعوبات من أهمها، أنه لو اتصف مبدأ الكائنات الطبيعية بصفة من صفات؟ أحد العناصر المحسوسة فإنه لن يكون مبدعًا سابقًا عليها في الوجود. ثانيًا، لو فسرنا جميع الكائنات بمادة واحدة فما الذي يميزها عن بعضها ويحدد لكل نوع منها صورته الخاصة به"⁴³. إعتقد الفيثاغوريون أن عناصر الأعداد هي عناصر الأشياء وأن العالم عدد، حيث ورد في المعجم الفلسفي أن مذهب فيثاغورس يرد الأشياء إلى العدد، فجوهرها جميعًا أعداد وأرقام، والظواهر كلها تعبر عن قيم ونسب رياضية"⁴⁴. وإذا كان أصل الأشياء هو الماء عند طاليس، والهواء عند أنكسمينس، فإنه عند أصحاب فيثاغورس، العدد كمفهوم مجرد. فالأشياء مهما اختلفت صفاتها وأعراضها، في مستوى المشمولات والمشموعات والمرئيات وغيرها، فهي تتأسس على العدد؛ فكل من السوائل

⁴³ أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، طبعة جديدة، 1998، ص. 72-73.

⁴⁴ إبراهيم بيومي مذكور، المعجم الفلسفي، ص. 142.

والغازات والصلبيات، لا بل كل عنصر أو نوع داخل الصنف الواحد، له عدده؛ وبتعبير آخر، لا يمتاز شيء عن شيء إلا بالعدد. ومن هنا، نستخلص أن العدد هو جوهر الوجود وحقيقته؛ فكل ما تقع عليه عينك، مركب من أعداد. ولما كانت الأعداد كلها متفرعة عن الواحد، لأنها مهما بلغت من الكثرة، فهي واحد متكرر، كان الواحد أصل الوجود، عنه نشأ، ومنه تكوّن. هذا ما يكشف عن أصل الأشياء في مستواها المجرد. وقد كشف أرسطو عن جوهر التفسير الفيثاغوري للعالم حينما قال "إنهم رأوا أنّ مبادئ الأعداد (الرياضيات) هي مبادئ كل الأشياء وأنّ العالم أشبه بعالم الأعداد منه بالماء أو التراب أو النار". وإذا علمنا أنّ الأعداد في ذلك الوقت كانت عبارة عن أشكال هندسية، فالعدد واحد هو النقطة، والإثنان قطعة، والثلاثة هو المثلث، والأربعة مربع وهكذا ... سهل فهم تصورهم هذا، فقولهم أن العالم عدد يعني أن العالم في الحقيقة هو أشكال هندسية، وأن هذه الطبيعة الهندسية أهم من الماء والهواء، فمؤدى هذه النظرية هو عدم المبالاة بالبحث عن نوع المادة الاولى لأنّ هذا الأمر لا أهمية له الآن، وهذا يبين أهمية المرحلة الفيثاغورية في تطور العلم اليوناني نحو شكل عقلي فيه قدر أكبر من التجريد، حيث تم الابتعاد عن تفسير الأشياء بالرجوع إلى المادة التي صنعت منها، والرجوع إلى صورتها Eidos التي يمكن أن يعبر عنها تعبيراً رياضياً*. ولكي نفهم تصور الفيثاغوريين لاشتقاق العالم من الأعداد يمكننا الرجوع إلى نصّ لديوجين اللايريتي عن أحد الفيثاغوريين يقول فيه "أن الوحدة هي مبدأ كل شيء، صدرت عنها الثنائية وهي لا نهائية، من الوحدة الكاملة ومن الثنائية اللانهائية صدرت الأعداد، ومن الأعداد النقاط ومن النقاط الخطوط، ومن الخطوط المسطحات، ومن المسطحات المجسمات، ومن المجسمات الأجسام المحسوسة وعناصرها الأربعة وهي الهواء والنار والماء والتراب ومن حركتها تكون العالم الحي الكروي الذي تكون الأرض ذات الشكل الكروي في مركزه".* هذا وكان الفيثاغوريون يرون في العدد واحد رمزا للثبات والدوام في الكون، ومن الواحد يأتي كل شيء طيب في هذا العالم، لأن الواحد هو أصل الأعداد الفردية. أما العدد إثنان فهو رمز للنقص في الكون، فالعالم لا بد له من تناغم الأضداد، فلا يمكن أن نفسره بوجود الخير وحده، أي الواحد، بل لا بد من وجود عنصر الشر الذي يقاوم نشاط الخير. ويقال إن فيثاغورس استمد هذه الثنائية الكونية من ثنائية

المجوس، ويقول أرسطو أن **الفيثاغوريين** - لهذا السبب - وضعوا قائمة من الأضداد عددها عشرة أضداد على النحو التالي : 1- المحدود واللامحدود، 2- الفردي والزوجي، 3- الواحد والكثير، 4- اليمين واليسار، 5- الذكر والأنثى، 6- السكون والحركة، 7- المستقيم والمنحني، 8- النور والظلام، 9- الخير والشر، 10- المربع والمستطيل (لماذا لم يختار الدائرة مثلا؟) ، والملاحظ أنها عشرة أضداد لأن العدد عشرة أكمل الأعداد، و مع المزيد من التطوير صارت نظرية العدد عند الفيثاغوريين نظرية متعسفة حيث أنهم مثلا يقولون أن الرقم 6 (أو 5 لاختلاف الفيثاغوريين فيما بينهم حول العدد الذي يتطابق مع شيء ما، راجع مثلا الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون، د. عزت قرني) رمز للزواج، والرقم 7 هو جوهر "الوقت المناسب"، و 4 رمز العدالة (على الأقل هذه النقطة مفهومة لأن العدد أربعة هو المربع والمربع معروف بتساوي أضلاعه وزواياه ...)، أما العقل فيمثله الرقم 1 لأن هذا العدد ثابت باعتباره الوحدة الأولى، أما الظن فيمثله الرقم واحد حيث أنه يقبل القسمة ... وهكذا.

ختاماً فقد حاولنا التعرف على **المدرسة الفيثاغورية**، لكن كما أشرنا سابقا فقلة المعلوم عن **فيثاغورس** والتشعبات التي لحقت المدرسة، وكذلك لاختلاف تأويلات نظريات الفيثاغوريين لابد أن نشير إلى أن ما قدمناه ليس هو القراءة الوحيدة لتعاليم وفلسفة **المدرسة الفيثاغورية** لكنه يمثل الرؤية السائدة والأكثر ترجيحاً، ودمتم ودمنا للحكمة أصدقاء.

إضافات:

[1] حيث يروى أنه أجاب "أنا فيلسوف" لما سألته لاونتس، طاغية فليونتاً، عن هويته. لكن يعتقد عبد الرحمان بدوي في كتابه "مدخل جديد للفلسفة" أن المرجح هو كون فضل صياغة المصطلح (فيلسوف) يعود إلى سقراط، لما عرف عن فيثاغورس من تعظيم للذات يتنافى مع وصف محب الحكمة، كما أننا نجد في محاوره من محاورات أفلاطون أن سقراط يقول متحدثاً عن الشعراء والخطباء قائلًا: " لا يمكنني أن أسميهم حكماء، لأن هذا الاسم اسم عظيم يخص الله فقط، إن لقبهم الملائم و المعتدل هو محبو الحكمة أو فلاسفة".

[2] يذكر برتراند راسل في كتابه "تاريخ الفلسفة الغربية" بعض القواعد التي جاءت في مذهب فيثاغورس الديني على النحو التالي : 1- أن تمتنع عن أكل الفول 2- ألا تلتقط ما قد

سقط 3- ألا تمسك ديكا أبيض 4- ألا تكسر الخبز 5- ألا تخطو من فوق حاجز 6- ألا تحرك النار بالحديد 7- ألا تأكل رغيف كامل 8- ألا تنزع الزهر من الأكليل 9- ألا تجلس على مكيا 10- ألا تأكل قلبا – 11 ألا تمشي في الطريق العامة 12- ألا تسمح للعصافير أن تبني أعشاشا في دارك.

[3] الديانة الأوريفية ديانة يونانية قديمة تنسب إلى أورفيوس Orpheus، وهو شاعر وموسيقيار –ابن الإله أبولو وكاليوبي – في الأساطير اليونانية. كان عازفا ملهما تطرب الآلهة والناس، والحيوانات –حتى الوحوش الضارية -والأشجار والصخور- من أنغام قيثارته. وقد أصبحت الديانة الأوريفية ديانة تذهب إلى أن الروح جوهر إلهي، وأنها لا تبلغ درجات حياتها الحقيقية إلا بعد وفاة الجسد. كما تعتقد أن الأرواح تتناسخ، متخذة أشكالاً أدنى أو أعلى تبعا لأعمال صاحبها في الدنيا والأوريفية تزدرى الجسد، وتمجد الحياة الآخرة، وتحت على النقاء الأخلاقي، ومسؤولية الفرد عن الإثم، وقد تأثر بها فيثاغورس في كثير من افكاره. ومن المحتمل أنه تأثر أيضا بأفكار الحضارات الشرقية التي زارها حيث ورد في بعض الأخبار أن كهنة مصر كانوا يحرمون أكل الفول مثلا و كذلك عرف عن كهنة فارس أنهم كانوا يعملون على تطهير الذات من أدران الحياة السابقة.

المحاضرة الخامسة

المدرسة السفسطائية

-1- تعريفها: كلمة Sophos في اليونانية هو الحكيم أو معلم الحكمة، " وكان اسم "سوفيست" يدل في الأصل على المعلم في أي فرع كان من العلوم و الصناعات، وبنوع خاص على معلم البيان" (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص.57)، وذلك قبل أن تتحول هذه الكلمة لاحقا لتكتسب معنى قديما تحت تأثير النقد الأفلاطوني والأرسطي. إذن السفسطائي في الأصل هو الحكيم، لكن في النصف الثاني من القرن الخامس أصبح المصطلح يشير إلى المجموعة التي ستحتفظ بهذا الاسم لنفسها وهم السفسطائيون.* السفسطائيون بالمعنى الجديد هم معلمون بالأجر، فهم أول من حدّد أجرا لدروسهم، وقد كان عظماء السفسطائيين لا يدرسون في العادة إلا للأثرياء القادرين على دفع الأجور، لكن الجيل التالي عليهم بدأ يوسع من جمهوره أكثر وأكثر راضيا بمبالغ أقل وأقل. وقد أثار ذلك

نوعاً من الحسد عند العامة وعند كثيرين من غير العامة، وصاحب ذلك نفور عام من ربط العلم بطلب الرزق. وخير من يمثل هذا النفور هو سقراط، حيث كان يفاخر بأنه لم يتلق أجراً في حياته عن مصاحبته للشباب. وعلة هذا النفور أن العلاقة المالية بين المعلم والتلميذ تجعل الأول في حالة من العبودية بإزاء الثاني، أما سقراط فكان يوفر لنفسه حريته بإزاء تابعيه بعدم ارتباطه بمالهم. لذلك أصبح لإسم "السفسطائي" هذه الرائحة المنفرة التي مصدرها أفلاطون - الذي شهر بالسفسطائيين- ثم أرسطو، والتي لم تكن هي السائدة في عصرهم، حتى أن أحد المؤرخين يشير إلى أنه لو أن زائراً لأثينا في الثلاثين عاماً الأخيرة من القرن الخامس قبل الميلاد سأل أثينياً: من السفسطائي الأول عندهم؟ لكانت الإجابة من غير شك: "سقراط". إذن فأفلاطون أخذ الأسم العام وأطلقه على مجموعة خاصة، بالإضافة إلى أنه ألصق به قصداً صفات غير مقبولة من عامة اليونانيين، ولم يكن يحتويها مدلوله الأصلي.* لقد كان هؤلاء السفسطائيون ينتقلون من مدينة إلى أخرى، يلقون خطبهم، ويصطحبهم تلاميذهم الذين كانوا ينظرون إليهم باحترام وينتبهون لكل ما ينطقون به. وقد كان يجيدون التعريف بأنفسهم واجتذاب تلاميذ جدد، حيث كانوا ينوعون من محاضراتهم، فبعضها كان من نوع العينة التي تهدف لإبهار المستمع بمعارفهم وبلاغتهم، ومنها محاضرات حصرية يحضرها من يدفع فقط، ومنها التي تقدم في بيوت الأغنياء الذين يستضيفونهم. وقد كان وصول سفسطائي شهير إلى إحدى المدن حدثاً ثقافياً هاماً.* ويجب أن نعلم أن السفسطائيين لم يكونوا "مدرسة" واحدة لها أعضاء، لا يمكن مقارنتهم بالفيتاغوريين مثلاً، وليس عندهم أي مذهب للفلسفة يشتركون فيه جميعاً، كما لم تكن هناك رابطة شخصية لصيقة تربط أحدهم بالآخرين كما قد نجد، وعليه فهم كانوا فئة محترفة لا مدرسة، ولكن تبقى الحركة السفسطائية اتجاه فكري يشترك أصحابه في بعض الخصائص الفكرية العامة.* لقد احتلت الخطابة مكاناً رئيسياً في نشاط السفسطائيين، حتى أنهم انتقلوا من الاهتمام بالتعليم على وجه العموم إلى تعليم الخطابة بشكل خاص. ومن الأسباب التي دفعتهم لذلك العمل على تهئية تلاميذهم للعمل السياسي الذي يستلزم القدرة على التأثير في الجماهير عن طريق الخطابة. وانطلاقاً من الخطابة اهتم السفسطائيون باللغة اهتماماً كبيراً، حتى أن بعض المؤرخين يرى

أن السفسطائيين هم مؤسسو علم النحو اليوناني.* ورغم أهمية الخطابة في نشاط السفسطائيين إلى أن القسم الأكبر من نشاطهم كان موجها نحو تعليم الفضيلة، وهي سمة عامة لأغلب السفسطائيين (وإن كان جورجياس يؤكد على أنه معلم للخطابة أولا و قبل شيء). ومفهوم الفضيلة بالمعنى اليوناني تعني قدرة الشخص على أن يؤدي مهامه بنجاح، فهو إذن لا يقتصر على مجال الأخلاق بل يتسع ليشمل كل ما يهم السياسة والمسائل اللغوية والفكرية، فبروتاغوراس مثلا يعرف نفسه قائلاً بأنه يعلم التلميذ "علم النصيحة الصائبة (الحكمة) الذي سيعلمه فيما يخص الشؤون المنزلية أفضل وسيلة لإدارة منزله، و سيجعله فيما يخص شؤون المدينة في أفضل مركز ليعمل و ليتكلم من أجلها"، وهكذا يمكن القول أن السفسطائيين كانوا ناشري الثقافة في بلاد اليونان.* و لم يسعى السفسطائيون لبلوغ الحقيقة، ولم يهتموا بالتأمل النظري، بل كانوا فلاسفة عمليين، ففي حين انشغل الفلاسفة الطبيعيون بالبحث في قضايا نظرية أنصب اهتمام السفسطائيين على أمور عملية. وهم عمليون لأن هدفهم الأول كان تكوين المواطن (من خلال تعليم الفضيلة كما سبقت الإشارة) وذلك من خلال إعداد الشباب من أجل النجاح في الحياة اليومية والسياسية، أما الهدف الثاني هو تحصيل المال، حيث أن العلم تحول على أيديهم إلى سلعة، لكن لا يجب أن تكون نظرتنا سلبية لموضوع الأجر هذا، فبروتاغوراس مثلا يقول أن يترك للتلميذ تقدير الأجرة وفق ما يراه مناسباً، ويقول أنطيفون، في حديث مع سقراط، أن السفسطائيين يتقاضون أجراً على ما يقدمونه من معارف لشعورهم بأهمية ما يقدمونه، خاصية أخرى مهم ميزت السفسطائيين هي اهتمامهم بالتخصص (هيبياس مثلا الذي كان متخصصاً في علم الأنساب)، فهم يدافعون عن احتراف مهنة معينة كالطب أو الزراعة...، ومن جهة أخرى نلاحظ أنهم اهتموا بشكل كبير بالمسائل اللغوية والأسلوبية والخطابية، ومنهم من كتب رسائل في هذه الموضوعات. ولكن تخصصهم العام كان السياسة، واهتمامهم بالسياسة كان على حساب الأخلاق، لأن الهدف هو تحقيق النجاح بأسرع الطرق وأيسرها، فركزوا على تنمية القدرات العقلية لتلاميذهم، فكانوا يعلمونهم أساليب البرهنة وعرض الأفكار بالإضافة إلى عدد من المعارف المرتبطة بجوانب متعددة، وقد هاجم أرسطوفانز هذا الجانب من تعليمهم في مسرحية

السحب حيث يقول على لسان الأب: "هؤلاء الناس سيعلمونك بالأجر كيف تعلي من شأن كل القضايا، العادلة منها وغير العادلة". فهو يشير إلى أن السفسطائيين لا يأبهون لعدالة القضية لأن كل ما يهمهم هو الفوز.

2- ظهور السفسطائية: ارتبط ظهور السفسطائيين بجملة من التحولات والحوادث التي شهدتها بلاد اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وأهمها انتشار الديمقراطية. والديمقراطية تعني إقامة علاقات سياسية من نوع جديد، حيث أن النبلاء والأثرياء لم يعودوا ملاك السلطة السياسية، وكان لهذا أثر في إضعاف قوة التقاليد الأخلاقية والسياسية السابقة، التي كان النبلاء هم المحافظون عليها والمستفيدون منها. كما أن الديمقراطية أدت إلى زيادة أهمية الفرد، حيث أن النظام الجديد يتيح لأي فرد الوصول إلى السلطة السياسية إذا امتلك القدرة على أقناع الشعب في مجالسه السياسية. عامل مهم آخر تجلى في الشعور بقوة البشر بصفة عامة بإزاء التصور السابق التقليدي الذي كان يؤكد على قوة الآلهة (لأن الذي انتصر على الفرس لم يكن الآلهة بل سواعد البشر، ويضاف إلى هذا تقدم العلوم كالطب مثلا ...). والعامل الأخير هو سيادة الشعور بنسبية الأشياء، خاصة النسبية الثقافية فالإيونان مختلفون فيما بينهم، وهم مختلفون عن الفرس، والفرس مختلفون عن المصريين (مثال ذلك اكتشافات هيروdot "424-484 ق.م" المثيرة حول معتقدات الشعوب الأخرى و سلوكات الناس).* هذا فيما يتعلق بالعصر الذي عاش فيه السفسطائيون، أما من الناحية الفكرية، فإن بحوث الفلاسفة الطبيعيين كانت قد وصلت إلى درجة واضحة من النضوب، فليس هناك من جديد إلا نادرا (حيث أن الفلاسفة المتأخرون كانوا يعملون على التوفيق بين المذاهب السابقة)، من جهة أخرى فإن أقوالهم تتناقض فيما بينها، فهذا يقول بالسكون و ذاك بالحركة، وهذا بنشأة الأشياء وفسادها و ذاك بأنها لا تتكون ... إلخ، حتى أن البعض بدأ يتساءل: "ما الفائدة من هذه المذاهب عمليا، أليس من الأفضل الإهتمام بشئون البشر؟" وهكذا نلاحظ أن السفسطائيين رد فعل طبيعي للفكر الإيوناني قبلهم، ونتيجة لتطور الإيونان العقلي والحضاري. لذلك كان السفسطائيون ظاهرة إجتماعية على مستوى بلاد الإيونان كلها، حيث أنهم تنقلوا من مدينة إلى أخرى يلقون خطبهم التي كانت نقدا لاذعا للتقاليد، وتدور حول شؤون الإنسان

الآنية والمظاهر المرتبطة بحياته المادية و الروحية، والعوامل التي تساهم في نجاحه في الحياة.

-2- أعلام السفسطائية: لقد اشتهر من السفسطائيين نفر كبير نذكر منهم تيسياس وكوراكس ثم جورجياس وبروتاغوراس وبروديكوس وتراديماخوس وهيبياس وكريتياس ...

بروتاغوراس (protagoras)

يعتبر برُوتاغوراس بلا شك زعيم الحركة السفسطائية باعتباره أقدم السفسطائيين وأقدرهم. ورغم الاختلاف بين المؤرخين على مكانة بروتاغوراس الفلسفية إلا أنهم يقرون له بالأسبقية في توجيه الفكر الفلسفي اليوناني نحو البحث في قضايا الإنسان، وينسبون إليه الفضل في وضع أسس النحو وفقه اللغة عند الأوروبيين⁴⁵. واحد من أشهر سفسطائيي القرن الخامس قبل الميلاد، أتى من أبديرا (نفس المكان الذي ولد به ديموقريطس)، ارتحل كثيرا عبر بلاد اليونان، فزار أثينا عدة مرات، حيث ارتبط ببيركليس الذي دعاه لكتابة دستور المستعمرة الأثينية ثوري. يقال أنه أدين بتهمة الزندقة وفر من أثينا لكن في ذلك شك لأن أفلاطون، في محاوره مينون، يقول بأنه تمتع بسمعة جيدة حتى مماته وعقب ذلك. اشتهر بلأدريته فيما يتعلق بوجود الطبيعة والآلهة، حيث اشتهر من بين شذراته القليلة المتبقية، شذرة مهمة من كتابه " في الآلهة " أو " عن الآلهة"، وهي تقول: "فيما يخص الآلهة، فإنني غير قادر على قول شيء، لا أنهم موجودون ولا أنهم غير موجودين: فعوامل كثيرة تحول دون هذه المعرفة، منها غموض الموضوع، ومنها كذلك قصر الحياة الإنسانية".

موضوع هذه العبارة هو معرفة الآلهة وعلى الأدق معرفة وجود الآلهة. ولعل برُوتاغوراس كان يقصد هنا هذه المعرفة اليقينية التي طرح بارمنيدس مثالا عليها في قصيدته "في الطبيعة"، حيث تحدث عن "طريق الحقيقة" المصحوب باليقين. ولدعم موقفه يسوق بروتاغوراس عاملين يدفعانه لاتخاذ هذا الموقف. الأول منهما: "غموض الموضوع". ماذا يقصد بهذا؟ أشار البعض إلى أن الكلمة اليونانية التي

⁴⁵ مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، 2000، ص. 43.

استخدمها بروتاغوراس تعنى جزئياً: "ما هو مضاد للمدرك بالحس"، فيكون المعنى أنه ليس لنا من سبيل إلى معرفة الآلهة كما ندرك الأشياء المحسوسة، بحيث أن موضوعات الحس التي لا يتم إدراكها في وضوح تسمى أشياء "غامضة"، ومن الممكن أنه يقصد أن الآراء كثيرة في الموضوع وأنها متعارضة. ومهما كان قصد بروتاغوراس فمن المؤكد أنه يشترط لإمكان المعرفة أن يكون إدراك موضوعها إدراكاً واضحاً، وهذا هو الذي يهمننا، بحيث أنه من الأفضل رفع الحكم بدلاً من اتخاذ موقف إذا كان الموضوع غير واضح.

العامل الثاني الذي يبرزه بروتاغوراس تبريراً "للاأدريته" هو "قصر الحياة الإنسانية". وهذا درس كبير في التواضع ودعوة للتأني، وهو عامل يعكس لنا كيف أن كل الأمور عند السفسطائيين كانت تؤخذ من وجهة نظر الإنسان، وهي تؤكد نسبية الجهد الإنساني الذي لا يسهل عليه، وإن طال البحث، أن يصل إلى اليقين، أي أن يعرف معرفة حقيقية. الشذرة الثانية، وهي أهم بكثير من السابقة، تقول: "الإنسان مقياس كل شيء، مقياس الأشياء الموجودة و مقياس لا وجود الأشياء غير الموجودة". أول ما نلاحظه من هذه أن بروتاغوراس جعل الإنسان مقياساً لـضدين، وهنا يجب أن نذكر أن بروتاغوراس كان يعلم تلاميذه كيف يأخذون المع وال ضد بخصوص نفس القضية، فكل موضوع في رأيه جانبان ويمكن الدفاع عن كل منهما.

إذن ماذا يقصد بروتاغوراس بـ "الإنسان" في الشذرة السابقة، هل يقصد الإنسان الفرد أم الإنسان النوع؟ إن أغلب التأويلات تقول أن القصد من العبارة هو أن كل المظاهر الحسية وكل المعتقدات صادقة نسبة إلى الشخص المعني، أي أن المقصود من العبارة هي الإنسان الفرد، وهذا هو التفسير الذي تبناه أفلاطون الذي عاش في عصر بروتاغوراس، والذي كان يمكنه أن يقرأ كل كتابه، فيعرف بذلك قصده. هذا المبدأ يستبعد الموضوعية بشكل كامل، وقد هوجم من قبل ديموقريطس وأفلاطون (راجع محاوره ثياتيتوس [محاورات أفلاطون]) لكونه يدحض نفسه، فإذا كانت كل المعتقدات صادقة، فالمعتقد القائل بأن "كل المعتقدات خاطئة" سيكون صادقاً! لكن هذا النقد يهمل نسبية الصدق في النظرية.

طلب شاب فقير من بروتاغوراس أن يعلمه دون أن يدفع له أجراً على أن يدفع له ما يستحق بعد أن يربح أول قضية له، ولأنه متأكد من قدرته على تعليم الشاب وأن هذا الأخير

لابد سيربح بعد أن يتتلمذ على يديه، وافق بروتاغوراس على تعليمه. لكن بعد أن تعلم رفض الشاب أن يدفع، فقرر بروتاغوراس أن يرفع دعوى ضده، وقال للشاب "أنك ستدفع في كل الأحوال، فإما أن أربح القضية وتدفع التزاما بحكم القاضي وإما أن أخسر فتدفع بحكم الاتفاق الذي كان بيننا"، لكن الشاب رد قائلا: "أبدا، لن أدفع في الحالتين، إذا ربحت القضية فلن أدفع بموجب حكم القاضي، أما إذا خسرت فلن أدفع بموجب الاتفاق الذي كان بيننا". أخيرا، نشير إلى أن أفلاطون، في المحاوراة التي تحمل إسم بروتاغوراس، يعرضه على أنه يتبنى شكلا محافظا إلى حد كبير من أشكال الأخلاقية الإجتماعية، مؤسسا على شكل من أشكال نظرية التعاقد الإجتماعي، حيث يرى أن البشر يحتاجون لتطوير مؤسسات اجتماعية كي يظلوا بقاء الحياة في عالم عدائي، والفضائل الإجتماعية الأساسية، العدالة وضبط النفس، محتم توقيرها بوجه عام إذا أردنا لتلك المؤسسات أن تزدهر.

جورجياس ()

جورجياس هو السفسطائي الثاني الذي يأتي بعد بروتاغوراس في الأهمية. وقد ولد في بداية القرن الخامس ق.م. وهو مدينة ليونتين في جزيرة صقلية، و قد اشتهر بأنه تلميذ أمبيدوكليس الذي كان من صقلية أيضا. في أول قدوم له لأثينا جاء سفيراً لمدينته طلباً للمساعدة ضد مدينة عدوة (syracusans)، وقد كللت مهمته بالنجاح فعاد إلى مدينته، لكنه سرعان ما عاد مرة أخرى لأثينا، فأخذ يتجول بها ملقياً خطبه، كما يفعل باقي السفسطائيين، حتى نال شهرة واسعة. وتنسب إليه عدة خطب لم يبق منها إلا شذرات، كما نسب إليه كتاب "في الطبيعة" أو "في اللاوجود"، والكتاب لم ينجو إلا على شكل ملخص لثلاث أطروحات أساسية : - لا يوجد شيء؛- إن وجد شيء فلا يمكن أدراكه؛ - إذا أمكن إدراك شيء فلا يمكن الإخبار عنه. لإثبات صحة الأطروحة الأولى يعتمد جورجياس بشكل كبير على المدرسة الإيلية خصوصا بارمنيدس ومفارقات زينون حول الحركة والكثرة، والتي حاول من خلالها دعم موقف أستاذه بارمنيدس (كما اشرنا حين التعريف بزينون) القائل بالوجود الواحد ... لكن إذا استعمل زينون حججه بهدف البناء، فقد كان جورجياس يهدف إلى الهدم. وإليك النصوص

الباقية من كتاب " في اللاوجود " كما جاء في ترجمة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني في كتابه
"لحبر الفلسفة اليونانية":

1- لا يوجد شيء: إذا وجد شيء فيجب أن يكون إما موجودا، أو لا موجودا، أو موجودا ولا موجودا معا.

أ - ولا يمكن أن يكون لا موجودا، لأن اللاوجود غير موجود. إذ لو وجد اللاموجود لكان في نفس الوقت موجودا و لا موجودا. وهذا مستحيل.

ب - ولا يمكن أن يكون موجودا، لأن الوجود غير موجود، إذ لو كان موجودا فيجب إما أن يكون أزليا أو مخلوقا، أو هما معا: 1 - ولا يمكن أن يكون أزليا، إذ لو كان كذلك فلا أول له، وما لا أول له فغير محدود. وما لا حد له فليس له مكان، إذ لو كان له مكان لوجب أن يحوى في شيء آخر، فلا يصبح بذلك غير محدود، لأن الذي يحوي أكبر مما يحوى، ولا شيء أكبر من اللامحدود. ولا يمكن أن يحوي نفسه، وإلا كان المحتوى والحوى شيئا واحدا، ويصبح الموجود شيئين، أي المكان والجرم، وهذا باطل. فإذا كان الموجود أزليا كان لا محدودا، وإذا كان لامحدودا فلا مكان له، وإذا لم يكن له مكان، فهو غير موجود. 2 - كذلك لا يمكن أن يكون الموجود مخلوقا، إذ لو كان كذلك فيجب أن ينشأ من شيء، إما من موجود أو من لا وجود، وكلا الأمرين مستحيل. 3 - كذلك لا يمكن أن يكون الموجود أزليا ومخلوقا في وقت واحد، لأن الأزلي والمخلوق متضادان، فلا يوجد الموجود. 4 - ولا يمكن أن يكون الموجود واحدا، وإلا كان له حجم وأمكن قسمته إلى ما لانهاية له، وعلى أقل تقدير كان له ثلاثة أبعاد هي الطول والعرض والعمق. 5 - ولا يمكن أن يكون كثيرا، لأن الكثير حاصل الجمع بين عدد من الوحدات، وحيث كان الواحد غير موجود، فكذلك الكثير.

ج - ومن المستحيل أن يكون الشيء مزيجا من الوجود واللاوجود. ولما كان الوجود غير موجود فلا شيء موجود.

2- إذا وجد شيء فلا يمكن إدراكه: إذا لم تكن المعاني العقلية حقائق، فلا يمكن أن تعقل الحقيقة: ذلك أنه إذا كان الشيء المدرك أبيضاً، فالبياض هو موضوع الفكر. وإذا كان الشيء المدرك غير موجود فاللاوجود موضوع الفكر. وهذا يساوي قولنا " أن الوجود أو

الحقيقة ليس موضوع الفكر، ولا يمكن أن يدرك". وكثير من الأشياء التي تكون موضوع الفكر ليست حقيقية، فنحن قد نتصور عربة تجرى على الماء أو رجلا له أجنحة. كذلك ما دامت المبصرات موضوع البصر، والمسموعات موضوع السمع، وما دمنا نسلم بأن المبصرات حقيقية دون أن نسمعها، والعكس بالعكس، فعلى أن نسلم بأن المدركات حقيقية دون أن نبصرها أو نسمعها، ولكن هذا يعني الاعتقاد في أشياء كالعربة التي تجري على ماء البحر. بناء على ذلك ليست الحقيقة موضوع الفكر، ولا يمكن للفكر أن يدركها، فالعقل الخالص، في مقابل إدراك الحواس، أو حتى باعتباره معيارا صادقا كالإدراك الحسي، أسطورة.

3- إذا أمكن إدراك شيء لا يمكن نقله إلى الغير: إن الأشياء الموجودة هي المحسوسات، فموضوعات البصر تدرك بالبصر، وموضوعات السمع تدرك بالسمع، ولا تبادل بينهما، فلا يمكن لهذه الإحساسات أن يتصل بعضها ببعض. ثم إن الكلام هو طريق الإتصال بين الناس، وليس الكلام من الأشياء الموجودة أي المحسوسات، فنحن ننقل الكلام فقط، لا الأشياء الموجودة. وكما أن المبصرات لا يمكن أن تصبح مسموعات، فكذلك كلامنا لا يمكن أن يساوي الأشياء الموجودة، مادام مختلفا عنها. يضاف إلى ذلك أن الكلام يتركب من المدركات التي نتلقاها من خارج أي من المحسوسات، لذلك ليس الكلام هو الذي يخبر عن المحسوسات بل المحسوسات هي التي تخلق الكلام. لا يمكن أبدا أن يمثل الكلام المحسوسات تماما، مادام الكلام مختلفا عنها، وكأن كل محسوس مدركا بعض الحس الملائم له، والكلام بعضو آخر. * وبناء على ذلك مادامت موضوعات الإبصار لا يمكن أن تعرض على أي عضو سوى البصر، ومادامت أعضاء الحس لا تتبادل إدراكها، فكذلك الكلام لا يمكن أن يخبر عن المحسوسات. من أجل ذلك إذا وجد شيء وكان مدركا، فلا يمكن الإخبار عنه. (إِنَّتَهَتْ نُصُوصُ جُورْجِيَّاس). * تساءل المؤرخون حول جدية جورجياس في هذه النظرية. ومن الواضح أنه غير جاد لأنه كان يعلم أن براهينه غير صحيحة، وأن فيها تلاعبا بالإلفاظ، ولكنه كان جادا في ما يبدو حينما أراد أن يبين أن المسائل التي شغلت الفلاسفة الطبيعيين لن تؤدي إلا إلى طريق مسدود، فيمكن فيها أن نقول الرأي ونقيضه، وأن الأهم من ذلك هو الاتجاه نحو الأمور الإنسانية، وهذا هو ما

فعله **السفسطائيون**. وعليه فهذه النظرية ليست إلا نموذجاً للبلاغة والقدرة السفسطائية على البرهنة على أي شيء وعلى إقامة الحجة على الشيء ونقيضه.

هيباس (Hippias)

يعد **هيباس** من أشهر السفسطائيين وأكثرهم تأثيراً في النصف الثاني من القرن الخامس ق.م. لقد كان أخطر السفسطائيين وأبرزهم في تلك الفترة وذلك لأنه كما قال ديورنت كان: "يمثل مدرسة بمفرده وكان أنموذجاً للرجل متعدد المعارف في عالم لم تكن المعرفة فيه قد بلغت من الاتساع حد يجعلها في غير متناول عقل واحد؛ فقد كان يعلم الفلك والرياضيات، وكانت له بحوث مبتكرة في الهندسة، وكان شاعراً وموسيقياً وخطيباً، وكان يلقي محاضرات في الأدب والأخلاق والسياسة، وكان مؤرخاً وضع أساس التاريخ اليوناني وتقويمه"⁴⁶. إن **هيباس الإليسي** هو حكيم وفيلسوف في الرياضيات ولد في إليس في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد فكان المعاصر الأصغر لبروتاغوراس وسقراط، وكان متعدد المواهب مما جعله ينال احترام الناس لحد جعلهم يرسلونه لمدن عديدة في مهام دبلوماسية. وفي أثينا تصادق مع سقراط ومفكرين آخرين. وكان شاعراً معروفاً وكان له تأثير من بعده على الشعراء الآخرين وحاضر في اللغة والتاريخ والسياسة والاقتصاد والفلك وأعماله الأدبية تتضمن مرثي شعرية وتراجيديا وقام بعمل كبير حول هوميروس وجمع الشعر اليوناني ولم يبق من كتبه إلا شذرات في كتب لكتاب آخرين. زعم بأنه يعتبر مصدراً لكل المواضيع، وألقى محاضرات على الشعر والقواعد والتاريخ والسياسة وعلم الآثار والرياضيات وعلم الفلك. وقد حقق فيها النجاح المالي. * وقد افتخر بأنه كان أكثر شعبية من بروتاغوراس، وأنه تهيأ في أية لحظة لإلقاء خطاب ارتجالي على أي موضوع إلى الجمعية في أولمبيا. وليس هناك شك بقدراته، لكنه بالمثل فقد كان سطحياً بالتأكيد. لم يكن هدفه أن يمنح المعرفة، لكن ليزود تلاميذه بسلح الحجة، ولجعل عقولهم خصبة في المناقشات على كل المواضيع على حد سواء. ويقال بأنه تبجح بأنه لم يلبس شيئاً لم تصنعه يداه. وهناك حواران كتبهما أفلاطون، هيباس الرئيسي وهيباس الثانوي، تحتوي على عرض لطرقه، ورغم أن أفلاطون كتب العمل بشيء من المبالغة

⁴⁶ مصطفى النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة/مصر، 2000، ص.79.

وذلك لأغراض المناظرات ولكنه كتبه الحوار بمعرفة كاملة عن هيبياس والطبقة التي يمثلها. وورغم أن المؤرخين ينكرون أصالة الحوارين، فلا بد وأنها كتبت من قبل كاتب معاصر (فهي قد ذكرت في أدب القرن الرابع)، وتمثل بلا شك موقف المفكرين الجديين للتأثير المتنامي للسفسطائيين المحترفين. وبلا شك فإن هيبياس قام خدمة حقيقية للأدب اليوناني بالتشديد على معاني الكلمات وقيمة القافية والأسلوب الأدبي. وينسب إليه عمل ممتاز عن هوميروس، ومجموعات الأدب اليوناني والأجنبي، وأطروحات أثرية، لكن لا شيء منها بقي ما عدا بعض الملاحظات الصغيرة. وهو يشكل وصلة بين السفسطائيين العظماء الأوائل، مثل بروتاغوراس وبروديكوس، والجدليات غير المعدودة التي جلبت لأسمائهم سوء السمعة.

المحاضرة السادسة

-أولا- المدرسة السقراطية (سقراط/Socrate)

1- مَنْ هُوَ سَقْرَاطُ؟ وَمَا الَّذِي نَعْرِفُهُ عَنْهُ؟ لَا يُوْجَدُ جَوَابٌ نَهَائِي يُمْكِنُ الْوُثُوقُ بِهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الرِّوَايَاتِ حَوْلَ شَخْصِيَّةِ سَقْرَاطِ مُتَعَدِّدَةٌ وَلَا سَبِيلَ لَتَرْجِيحِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ عَنْ تِلْكَ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَقْدَمُ لَنَا أَفْلَاطُونُ (أَشْهَرُ تَلَامِيذِ سَقْرَاطِ) صُورَةَ سَقْرَاطِ الْمَوْحَى إِلَيْهِ مِنَ الْآلِهَةِ بِأَنَّهُ يَحْضِرُ مَوَاطِنَهُ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِتَحْسِينِ أَرْوَاحِهِمْ، فَهُوَ لَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِالْحِكْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَيَعْلَمُ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَلَيْسَ عَلَى طَرِيقَةِ السِّفْسُطَائِيِّينَ، أَيْ بَلَا أَجْرٍ، وَعَلَى مَنَهِجٍ لَا يَقُومُ عَلَى التَّلَقُّينِ بَلْ عَلَى الْوَصُولِ الْذَاتِيِّ إِلَى مَعْرِفَةِ النَّفْسِ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ. وَعَلَى النَّقِيضِ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ نَجِدُ صُورَةَ مُخْتَلَفَةً تَمَامًا فِي مَسْرَحِيَّةِ "السَّحْبِ" [يُمْكِنُكَ تَحْمِيلُ النُّسَخَةِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ مِنْ هُنَا] لِأَرْسُطُوفَانِ (أَرْسُتُوفَانِيز) حَوْلِي 423 ق.م، حَيْثُ يَظْهَرُ سَقْرَاطُ فِي هَذِهِ الْمَسْرَحِيَّةِ مُحَاوَلًا الْنَفَازَ إِلَى أَسْرَارِ السَّمَاءِ وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ (كَتَلْمِيذٍ لِلطَّبَّيْعِيِّينَ)، وَقَادِرًا عَلَى قَلْبِ الْمَوْقِفِ الضَّعِيفِ إِلَى مَوْقِفٍ قَوِيٍّ وَمُعَلِّمًا الْآخَرِينَ كَيْفَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ (تَمَامًا كَالسِّفْسُطَائِيِّينَ). بِالإِضَافَةِ إِلَى أَفْلَاطُونِ وَأَرْسُطُوفَانِ هُنَاكَ رِوَايَةُ إِكْزِينُوفَانِ الَّذِي يَحْدِثُنَا عَنْ سَقْرَاطِ بِاعْتِبَارِهِ رَجُلًا تَقِيًّا يَعْتَقِدُ فِي الْآلِهَةِ وَيَقُومُ بِوَاجِبَاتِهِ الدِّينِيَّةِ (غَى عَكْسِ مَا زَعَمْتَهُ عَرِيضَةُ الْإِتِّهَامِ أَثْنَاءَ الْمَحَاكَمَةِ). وَهُوَ فِي سُلُوكِهِ مُعْتَدِلٌ يَكْرَهُ الْعَنْفَ، وَيَسْتَخْدِمُ الْإِقْنَاعَ وَقَادِرٌ عَلَى الْنَفَازِ إِلَى شَخْصِيَّاتِ الْبَشَرِ وَعَلَى الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ حَكْمًا نَافِذًا. وَهَكَذَا

فسقراط أعدل البشر وأكثرهم اعتدالا وفضيلة، وهو أفضلهم. وقريبة من هذا التصور كانت صورة سقراط عند أتباعه "الكليبيين" الذين نقلوها إلى خلفائهم الرواقيين، والتي شاركت أعظم المشاركة في تكون نموذج الحكيم الذي سيحتل مكانة رئيسية في الأخلاق الرواقية. وقريبة منها أيضًا كانت الصورة التي نقلها إلينا جامع الآراء ديوجين اللايريتي، وهذه هي خصائص سقراط عند هذا المؤلف: صلابة الشخصية، الاعتدال في المأكل والمشرب، عزّة النفس، التواضع وغيرها. * ولكن أسطورة سقراط لم تكن دائمًا أسطورة إيجابية ترى فيه نموذجًا للحكمة، بل كانت عند البعض الآخر صورة أسطورة سلبية، رأينا منها نسخة أرسطوفان، وهناك صور سلبية أخرى تقدّم سقراط جاهلاً بلا تربية، مرابيا فاسقا، ومتزوجا من اثنتين. هذا التيار نجده أيضا عند بعض الرواقيين وعند بعض الكتاب في الحضارة المسيحية وحتى نيتشه الألماني. * إن "سقراط عامي جاهل، لم يصلح بعصاميته ما أفنّده من تعليم في حادثته. وهو قبيح منتهى القبح، ومحبوباً باعترافه بانفعالات بالغة العنف... وهو أول من تفلسف حول الحياة، وجميع المدارس التي انبثقت عنه هي أولا فلسفات للحياة. حياة يسيرها الفكر ! الفكر يخدم الحياة، بينما كانت الحياة لدى جميع الفلاسفة السابقين تخدم الفكر والمعرفة، الحياة النزيهة هي الهدف لدى سقراط، أما لدى الآخرين فالهدف درجة رفيعة من المعرفة الصحيحة. وعلى هذا النحو، فإن الفلسفة السقراطية عملية بصورة مطلقة، إنها تناصب العداء كل معرفة لا تقترن بأفاعيل خلقية. إنها برسم استعمال المجموع، شعبية، لأنها تعد الفضيلة قابلة لأن تتعلم. وهي لا تتوجه إلى العبقريّة ولا إلى الملكات العليا للعقل. " [نيتشه]. * أما في الحضارة المسيحية فقد رأى بعض "آباء الكنيسة" في سقراط سلفا لهم، واعتبروه "شهيدا قبل الأوان". وفي عصر "النهضة" وعصر "الإصلاح" في تاريخ الحضارة الغربية يصبح سقراط "قدّيسا" إلى جانب "القديس" أفلاطون عند إرازموس (الكاتب الهولندي الشهير) أحد كبار ذلك الوقت. بل إن اسم سقراط أصبح يقرن منذ عصر النهضة باسم المسيح. والطريق أن اصحاب العقل، ومن انتقدوا الكنيسة الكاثوليكية من مثل مجموعة الموسوعيين، رأوا في سقراط أول ضحية للفلسفة في صراعها ضد "الخرافة"، وفي نفس الوقت رأى فيه البعض "نفسا مسيحية بالطبيعة" هناك أيضا من المسلمين من اعتبر سقراط نبيا من الأنبياء غير المذكورين في

القرآن-، "تمسيح" سقراط هذا هو الذي كان وراء هجوم "نيتشه" عليه : فحينما أدار سقراط ظهره للعالم المحسوس فإنه وصل إلى عتاب الثنائية المسيحية بين الروح والجسد. وهناك سبب آخر لهجوم عليه، ذلك أن في سقراط يتجسد اتجاه واحد من اتجاهي الروح اليونانية: ذلك هو الاتجاه "الأبولوني"، مبدأ الحياة الواعية، فهو الحكيم الذي يدري كيف يقهر الغريزة بالحكمة، ومعه تتفصل وحدة العنصرين الأبولوني والديونيزيوسي الذي كان اتحادهما في فكر نيتشه سبب خصوبة الحضارة اليونانية حتى عصره، وخاصة في ميدان المسرح. وهكذا انتهى الانسجام واختفى التوتر الخلاق بين الأضداد، ومعه يبدأ انهيار الحضارة اليونانية، بل إن بعض المؤلفين ذهب إلى أن عقلية وعقلية أفلاطون ليستا باليونانيتين، بسبب الإتجاهات شبه التصوفية فيهما. *وهكذا تتعاقب الأساطير السقراطية. وهي أساطير لأن كلا منها يدعي تمثيل الحقيقة، ولكنها في الحقيقة نتاج لموقف من سقراط يكون معه فيتخذ منه نموذجا أو ضده فيهاجمه بعنف. وهذه الأساطير هي التي بنت شهرة سقراط وجعلتها تستمر وتحيا، وضمنت له هذا التأثير الكبير في الحضارة اليونانية وفي الفكر المسيحي والغربي. * إن اختلاف الروايات حول سقراط يفضي بسهولة إلى حالة عامة من الشك، وأسباب اختلاف المصادر الأولى منها الذاتي ومنها المذهبي ومنها ما يخص غرض الكاتب، ولكن هناك سبب أشار إليه بعض المؤلفين وهو سبب يمكن أن يسمى سياسيا: وذلك أن كل "شاهد" ينتمي إلى طبقة اجتماعية ويرى الأحداث من خلال وجهة نظرها. فالذي ينتمي إلى فئة متواضعة من الشعب والرافض للعبودية، كان لا يمكن أن يرى في سقراط نفس الشخص الذي رآه أفلاطون وهو الأرستقراطي والمحبد لنظام العبودية. والحل "العملي" للخروج من هذا الشك حول سقراط التاريخي، هو الاهتمام بسقراط كما يظهر عند أفلاطون لأن سقراط الأفلاطوني هو الذي أثر في تاريخ الفكر اليوناني ثم الغربي. * من المتفق عليه أن سقراط ولد عام 470 ق.م. من أب نحاس (سوفرونيسكوس) وأم مَوْلدة (فينريتي)، وربما عمل هو نفسه فترة من الزمن نحاسا و لكن يبدو أنه لم يستمر طويلا في هذا العمل. وقضى الفترة الكبرى من حياته يعيش على إرث بسيط لكنه كان يكفيه، من جهة لأنه كان يعيش عيشة أقرب إلى الزهد ومن جهة أخرى لأن الدولة الأثينية كانت تعطي لمواطنيها بعض

المساعدات المالية. وقد اشترك **سقراط** في عدد من الحملات العسكرية الأثينية، وأبلى فيها بلاء حسنا جعله موضع إعجاب القادة العسكريين، كذلك فقد وقع عليه الدور للقيام ببعض المهام السياسية في أحد المجالس الشعبية.* ورد في وصف **سقراط** أنه كان دميما جاحظ العينين أفطس الأنف، إذا مشى ترنح على شاكلة البط. ومما لاشك في أن هذا القبح الطبيعي كان صدمة لليونانيين الذين كانوا يولون الجمال اهتماما كبيرا. وكان هذا القبح صدمة لهم أيضا من حيث تعارضه مع "نفس" **سقراط** الموهوبة بالذكاء والفراسة. هذا التضاد بين قبح الجسم وجمال الروح كان عوناً لـ**سقراط** على جذب الأنظار إليه، بل وعلى التأثير على الشباب الذي كان يزدهم من حوله. وإلى جانب هذا القبح كان **سقراط** لا يهتم بملبسه، وقد أيضا رجلا غريبا، فهو قادر على شرب كميات كبيرة من النبيذ دون أن يثمل، وعلى البقاء ساعات طويلا على الجليد دون أن يكون في قدميه نعل يحميه. * "ما من أحد رأى قط **سقراط** أو سمعه يفعل أو يقول شيئا فيه تدنيس للمقدسات أو كفر. كما أنه كان يناقش، خلافا لمعظم الآخرين، حول طبيعة الكون، وما كان يبحث كيف ولد ما يسميه الفلاسفة العالم" [كزينوفان].* أما عن صفاته الأخلاقية والعقلية فيقال أنه كان قوي الشخصية، متواضعا عزيز النفس، يرفض ما زاد عن الحاجة. وقد كان ذا قدرة فائقة على التحليل العقلي وعلى النقاش بوجه عام، متفتح العقل أمام كل فرصة، وكثيرا ما يعود إلى نفس الموضوع مرة ومرة، قادرا على الحديث مع الكبير والصغير، العالم والصانع، وذلك في كل الموضوعات المتصورة.

2- المنهج السقراطي: لقد أشرنا في ما سبق إلى مسألة اختلاف الروايات حول شخصية **سقراط** الحقيقية، وقلنا أن الحل العملي هو دراسة شخصية **سقراط** كما عرفنا عليه أفلاطون، وفي هذا الموضوع سنتعرف على مفهوم مهم في فلسفة **سقراط** هو "المنهج السقراطي".* إن الطريقة السقراطية في التفلسف تقوم على الحوار، حيث يرى **سقراط** أن الحوار هو الطريقة المثلى لبلوغ الحقيقة. وهكذا يتميز **سقراط** عن الفلاسفة الطبيعيين، الذين اعتمدوا على الكتابة، في حين اعتمد **سقراط** على الاتصال المباشر بين النفوس، كما تتميز منهج **سقراط** عن منهج السفسطائيين القائم على الإلقاء والتلقين.* والحوار السقراطي يقوم على افتراض هام ذي شقين، هو أن الحقيقة موجودة وأن المعرفة ممكنة.

وفي لقاء سقراط مع مدّعي حيازة معرفة الحقيقة هذه يبدأ بافتراض أنّ معرفتهم هي المعرفة الحقيقية، ثم ينتقل ابتداءً من هذا الفرض إلى فحص نتائج هذه المعرفة المدّعاة، التي لن تصبح حقيقةً إلا إذا اتفق عليها الطرفان، بحيث أن أحد أهداف المنهج السقراطي هو الوصول إلى الوضوح الذاتي لدى الأطراف المتحاورّة، أي وعيهم المُقام على أساس عقلي بأن معرفتهم هي الحقيقة، وهذا الوضوح الذاتي هو في المحل الأول معرفة الفرد لذاته تطبيقاً لمبدأ "اعرف نفسك بنفسك". ويجب أن نلاحظ في هذا ثورةً صغيرة، لأن الحكمة التقليدية تقوم على التلقين والتلقي، كذلك فإن هذا المبدأ هو تأكيد لأهمية الفرد. * المرحلة الأولى من مراحل الحوار السقراطي هي مرحلة وضع المشكلة وضعا دقيقاً، وعادة ما يكون ذلك على صيغة: "ما هو؟". والثانية هي الوصول إلى إجابات متتابعة عن السؤال، وهي الفروض التي يقوم سقراط بفحصها واحداً وراء الآخر مبينا التناقضات التي تقوم عليها أو تلك التي تؤدّي إليها، والمرحلة الثالثة هي بصفة عامة التنفيذ الأخير والشعور بالجهل عند المتحدّث. * ومن المؤكّد أن المرحلة الثانية هي أهم المراحل الثلاث، فما هو موقف سقراط أثناءها؟ يمكن تلخيص موقفه في عبارتين : الأولى تتمثل في إعلان الجهل حيث يقول سقراط في محاورّة "الدفاع" أنه لا يعرف شيئاً، رغم أنه يعترف أن من يسمعونهم يظنون أنه يعرف الحقيقة بخصوص المسائل التي يتناقش فيها مع الأثينيين، وعدم تصديق معاصريه له يثير سؤالاً هاماً: هل جهل سقراط حقيقي أم مُتصنّع؟ من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، لكن الأهم هو أن قول سقراط بالجهل له وظائف منهجية منها: - أنه ييسر البحث المشترك في المسائل المعروضة، وإلا تحول الأمر إلى تلقين وتلق. - أنه يسمح بالنظر في كل الفروض الممكنة، مما يوسّع دائرة البحث و يكشف أكثر عن معارف الطرف الآخر. - أنه يولّد لدى الطرف الآخر وهم أن النتائج التي يصل إليها الطرفان إنما توصل إليها هو نفسه، وليس سقراط الذي يكتفي بالسؤال والإعتراض ثم بالسؤال من جديد. العبارة الثانية هي التّهم هذه الكلمة (التهم) مترجمة عن الكلمة اليونانية eironia وهي لا تعني في الحقيقة غير "التظاهر"، بحيث أن المعنى الدقيق للتّهم السقراطي هو "التّظاهر بقبول رأي الطرف الآخر ثم جذبه إلى الحديث ثم فحص متضمنات هذا الرأي و الوصول به إلى نتائج يقبلها العقل"، وهناك نص مهم بهذا

الخصوص هو نص 337 أ من الكتاب الأول من الجمهورية، وفيه يقول المتحدث مع سقراط: "يا إلهي! تلك هي طريقتك المميزة في التهمك وادعاء الجهل يا سقراط. ألم أتكهن بذلك منذ البداية؟ ألم أخبر الباقيين بأنك إذا ما سئلت ترفض الإجابة وتدعي الجهل وتفعل كل شيء إلا أن تقدم جواباً؟" إذن فالتهم السقراطي مرتبط أشد الارتباط بادعاء الجهل، وهو لا يحمل معنى "السخرية"، ورغم هذا فما من شك أن سقراط كان يسخر أحياناً من المتحدثين معه.* وأهم مظاهر هذه السخرية تظاهر سقراط بثقته في "حكمة" الطرف الآخر، واستعداده للتعلم منه ثم وضعه أمام أسئلة محرجة تضطره إلى إعلان عجزه (ما فعله مع أوطيفرون مثلاً).* أمّا عن موقف سقراط في أثناء المرحلة الثالثة، وهي مرحلة التفنيد والشعور بالجهل عند المتحدث، فإنه يبدو موقفاً أخلاقياً أساساً، إذ أن هدفه هو فيما يبدو تطهير نفس المتحدث من أوهم المعرفة.* ويمكن القول أن تأثير سقراط الأكبر على معاصريه كان، قبل كل شيء، تأثيراً منهجياً. ويظهر هذا بوضوح من شهادة أرسطو التي تنظر إلى سقراط تحت ضوء منهجي خالص. يقول أرسطو: "سقراط عنى بدراسة الفضائل.. وقد بحث سقراط عن الجوهر، وكان هذا طبيعياً لأنه حاول التفكير منطقياً، ونقطة البدء في كل تفكير منطقي (في القياس) هي الجوهر.. وهناك اكتشافان يمكن نسبتهما بحق إلى سقراط: التفكير الإستقرائي و التعريف الكلي، وكلاهما من بين مبادئ العلم."

3- محاكمة سقراط: لقد كان الحدث الأهم والأكثر تأثيراً في حياة سقراط هو محاكمته وإعدامه. لقد عاش فاجحاً ناقداً ومنبهاً الأثينيين إلى أن ما يدعون معرفته ليس معرفة حقيقية، وإلى أن القيم التي يؤسسون عليها حياتهم ليس هي القيم لأولى بالإتباع، ومن هنا كانت ضرورة أن يحدث صدام عنيف بينه وبين المجتمع الإثيني، فكانت محاكمته وإعدامه.* تقدم لاتهام سقراط ثلاثة من خصومه، أنيتوس أحد زعماء الديموقراطية وكان شديد الحقد على سقراط لاعتقاده أنه أفسد عليه ابنه، و مليتوس شاعر خامل، وليقون أحد الخطباء. وقد جاء في الاتهام الرسمي و الذي نقله أفلاطون في محاوره الدفاع : "سقراط مُذنب لأنه يفسد الشباب، ولا يعتقد في الآلهة التي تؤمن بها المدينة" و هو اتهام ذو شقين، سياسي وديني. ويظهر بالفعل أن سقراط لم يكن يعتقد في الآلهة التقليدية، ولكن

نصوص كثيرة تشير إلى أنه كان يعتقد باله حيث كان كثيرا ما يتحدث عن "الاله" بالمفرد أو عن الألوهية. أما الشق الأول من الاتهام، الشق السياسي منه، فهو أخطر كثيرا. وإن كان هذا الاتهام يركز على إفساد عقول الشباب الذين سيصبحون مواطنين و تكون لهم كلمتهم في جمعية الشعب، فالاتهام الحقيقي وراء هذا الاتهام الرسمي هو "معارضة سقراط للنظام الديموقراطي"، حيث أن سقراط كان يفضل طريقة الحكم الأرستقراطية التي كانت تتبعها إسبرطة، فقد كان معجبا بها و يشيد بدستورها، و كانت له اعتراضات على النظام الديموقراطي، أهمها أنه نظام يسمح بأي صل إلى الحكم أي فرد من أفراد الشعب، وبأن يصعد الحدادون والتجار الى منصة الجمعية العمومية ليدلوا بأرائهم في أمور لا يفقهون فيها شيئا، ولكنها مع هذا أهم الأمور البشرية : العدالة والحرب والسلام. والشخص الوحيد الذي يجب أن يُنصت له الشعب وأن يطيعه هو ذلك المتخصص في تلك الأمور، وهو نقد يُعادل في الحق هدمًا لأهم أسس النظام الديموقراطي. لهذا فما إن عاد الحزب الديموقراطي إلى الحكم، بعد سقوط كم الطغاة الثلاثين الذي أعقب إستسلام أثينا أمام إسبرطة، حتى أسرع بعض زعمائه، في عام 399 ق.م، إلى تقديم سقراط إلى المحكمة حتى " ينتهوا منه" ومن "ثرثرته" التي لم تنقطع خلال الثلاثين عاما السابقة، خاصة وأن البعض منهم كان يعتبر سقراط صديقا، إن لم يكن أستاذاً، لعدد من هؤلاء الطغاة الثلاثين، فكانت محاكمته، التي تحكي لنا عنها محاوره "الدفاع" وكانت إدانته والحكم عليه بالأعدام محاوره "أقريطون" ورغم أن تلاميذه مهدوا له أسباب الفرار لكنه رفض بإباء و شهامة، لأن عليه أن يخضع لقوانين المدينة التي عاش فيها و أخلص لها طوال حياته، فكان موته في مغرب أحد الأيام في سجن من سجون أثينا، والذي يصفه لنا أفلاطون في عبارات مؤثرة أشد ما يكون التأثير في محاوره "فيدون" التي تقول آخر عبارة فيها: " هذه كانت نهاية صديقنا الذي نستطيع أن نقول عنه أنه كان، من بين من عرفنا من رجال هذا العصر، أفضلهم و أحكمهم و أعدلهم."